يوميات عربية

باسم فرات

لا عشبة عند ماهوتا

من منائر بابلَ إلى جنوب الجنوب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء
منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من
الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

Almutawassit

استهلال

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات، تأتي بعد مرور عقد ونصف العقد على تأسيس جائزة ابن بطوطة، التي شكّلت تحدّيًا لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزًا لكتابة أدب اليوميات، إنْ في فضاء السفر، أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم، والمَنفيين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحُرّيّات.

وقد حضُت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكتّاب العرب الجدد على استئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضمورًا واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إنْ من خلال منشورات «المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق»، أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة، نوسّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالًا ونشرًا، بما يتعدّى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع، نُباشر نشرها بالتعاون مع «دار المتوسط - ميلانو»، بوصفها مشروعًا جديدًا، وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويُعبّر - في كثير من منشوراته - عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحُرّة والتفكير الحُرّ، ويشترك مع «مشروع ارتياد الآفاق» خصوصًا في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية بين ضفّتَي المتوسط، وهو ما يمكّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتّاب العرب الذين لا يعدّون أنفسهم قازة منعزلة، ولا يرون حاضرًا لثقافتهم من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصًا في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلًا زاهرًا لها، ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلّعاتهم الثقافية جزءًا أساسيًا من تطلّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

***

شكّل أدب اليوميات عماد مشروع «ارتياد الآفاق» الذي يُعدّ، اليوم، مشروعًا فريدًا من نوعه في الثقافة العربية، لكونه عَدّ أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهمّ والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحّالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب، بوصفها مُدوّنات، تُشكّل وثائق أدبية وتاريخية معا، وهي لوحات فنّيّة مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات، ترصد المرئيات، وغالبًا ما تُثري القرّاء بحَدس شاعري، وابتكار فنّي، وجمال في التعبير، عبر خيال يُعانق الواقع، ويُوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفد التسجيل والتصوير المباشر غايتهما. ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنّانين أكثر منهم مُدوّني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيًا وراء فَهم حقيقيّ لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

نبّهنا مرارًا خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حقّقنا ونشرناه من كُتُب اليوميات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق السفر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكتاب، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يُشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً، ومخزنًا للقصص والظواهر والأفكار، فضلًا عن كونه مادّة سرديّة مُشوّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش ممّا التقطته عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمّ بالأشياء، ويُحلّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكّرُ بها.

محمّد أحمد السويدي

إلى جَني ..

قبس سماويّ بَدَّدَ عتمة منفاي

المقدمة

هذا كتاب وددتُ تأليفه قبل هذا الوقت، لكن أمورًا عدة كانت تدفعني إلى تأجيله، تأجيل يزيد من نموّه في الذاكرة، كتاب يكتب نفسه، وحين بدأتُ تدوينه وجدتهُ ينثال على شاشة الحاسوب. كتابُ أردتُه أن يُعَبّر عن هواجسي بصفتي لاجئًا، ورؤيتي للجوء أنه ليس الحلّ الأمثل، وتلك الوصمة التي تبقى تلاحقني بكوني لاجئًا، هو شعوري الخاص، لا أستطيع منه تخلُّصًا، ولكني لا أُسقط ما أحسّه على الآخرين. كتاب أؤكّدُ مزة أخرى فيه أنني أنتمي إلى الشعر، مخلص في قراءاتي، وفيما أكتب. الشعر الذي نذرتُ حياتي له، لا يمكن أن أضعه جانبًا حينما أقرأ وأكتب. حالة واحدة أضطرّ فيها إلى ذلك، هي في البحث، فطبيعة البحث والمعلومات العلمية تاريخية وإناسِيَّةً (إنثروبولوجية) لا تحتمل إلا الصرامة والدقّة والصدق ونزع العاطفة. لكن الشعر يزهو مُتَبَخْترًا حين أدافع بحماس عاطفي عن رؤية، قادتني صرامتي في البحث وتنقيبي وتحليلي إلى تبنّيها، ولم أجعل عاطفتي تَتَسَيَّد إلا بعد كل ما ذكرتُ وعرضتُ نتائج بحثي على متخصّصين من مشارب شتّى، متخصّصين، علميّتهم الصارمة محطّ إعجاب وتقدير في الأوساط العلمية (الأكاديمية).

سيلاحظ القارئ، أن جملًا وأفكارًا بعينها تكرّرت في هذا الكتاب، وفي مقالاتي والحوارات التي أُجريت معي، تكرارها محسوب وبدقّة، فإنني بصفتي عراقيًا وجدتُ وطني نَهبَ الطغاة واللصوص والقوميين المتطرّفين عربًا وعنصريين إلغائيين مزوّرين غير عرب، كُلٌّ اتّفق على تدمير العراق، وخَلْق حالة عدائية معه، أو مع جزء من تاريخه وجغرافيته، وواجبي أنا المتصالح مع تاريخه وجغرافيته، المتسلّح بهما وبحقيقة وحدتهما أن أقول وأكرّر القول إنّ العراق إقليم جغرافيّ، مساحته اليوم تُشكّل معظم مساحته التاريخية التي اتّفق المؤرّخون والبلدانيون عليها، وإنّ الوجود العربي فيه قديم قِدَم الأرض؛ وهذه الأرض التي أحدثت ثورة في المسيرة الإنسانية عبر اختراع الكتابة وبناء المُدُن وسنّ القوانين وتأسيس الممالك والإمبراطوريات وكتابة الشعر والملحمة، هي نفسها وعلى أرضها تمّ اختراع الأبجدية العربية، وهي واحدة من أكثر الأراضي

التي تمّ التدوين فيها، ممّا يعني أن سكّانها الأصليين هم مَن يملكون تراثًا كتابيًا واضحًا، عمره يزيد عن الألف سنة، ومُنجَزًا ضخمًا، يُشكّل هويّته، يمتد عبر عشرات الأجيال قبل الحرب العالمية الأولى التي كانت حدًا فاصلًا في المنطقة والعالم، وأن تنوّع العراق ليس نبتًا شيطانيًا، بل هو رحمة وجزء من سُنّة الحياة وطبيعة الأوطان الثرية بتنوّعها الجغرافي وخيراتها وتسامح أهلها، ولا سيما أكثريتها.

هذا كتاب زاوجتُ فيه بين أدب السيرة وأدب الرحلات، وقراءته أدبَ سيرةٍ فقط قد تُسيء له، وقراءته أدبَ رحلاتٍ فقط ربّما تخذله، فأدب السيرة أسير الواقع، وأدب الرحلات يحمل نصف التزام بالواقع، ونصف التزام بالخيال، أي هو نوع ثالث بين السيرة والرواية، وهذا الكتاب جمعتُ فيه الواقع المُهَيمن على أدب السيرة، والتحرّر النسبي لأدب الرحلات من الواقع. كنتُ شاعرًا يروي سيرته، ولكني في الأحوال جميعها كنتُ قارئًا، يُدَوّن جزءًا مهمًا من حياته؛ تَطَوّره الثقافي، نموّ لغته الإنجليزية التي كانت أحد أسباب إخفاقه الدراسي، مشاركاته في الوسط الأدبي النيوزلندي، وتأمّله بمحبّة أحوال مجتمعه العراقي والجاليات الأخر في هذا المنفى الجميل النائي؛ ولا يمكن نكران الخبرة الكبيرة التي اكتسبها عبر قراءة أكثر من ربع مليون صفحة عن العراق وتنوّعه اللغوي والديني والمذهبي والقومي والعِرقي والإثني والمناطقي ومراحله التاريخية، وعبر السفر والترحال والاحتكاك بثقافات عديدة ومتنوّعة ومختلفة، وتلك الأسئلة الكثيرة عن الهوية ومفاهيم القومية والإثنية والعِرقية، وحقّ تقرير المصير، وكيفية معرفة الحقّ التاريخي لفئة ما على أرض مشتركة وغيرها من الأسئلة التي وجّهتُها إلى عدد كبير من المثقّفين والأكاديميين والدبلوماسيين الأجانب، ممّن التقيتُهم في حلّي ومرتحلي.

تعلّمتُ من هذا كلّه أن لا حقوق لفئة في بلدان مثل العراق وسورية خارج نطاق الدولة المَدَنية - الوطنية، دولة المواطنة الحقّة التي تحتفي بالتنوّع، وتفخر به، وتعمل إلى تكريس الاختلافات اللغوية والدينية والمذهبية والعِرقية على أنها ثروة وطنية، لا يمكن هدرها، ومفخرة في التعايش السِّلمي في المجتمع، وتجاهلها وعدم الاهتمام والاحتفاء بها يُعدّ خيانة وطنية، وأن الفئات التي لا تملك تاريخًا تدوينيًا بلُغتها يمتدّ إلى قرون، وتخلو من تراث كتابي، لا أقول بمستوى التراث العربي، فهذه الأرض عربية بلا شك، وتراثها شاهدها وبرهانها الأكبر، ولكن مَن لا يملك تراثًا، ولو بمقدار عُشر التراث السرياني، وترفض وحدة البلاد، وتطالب

بامتيازات على حساب غيرها، إنما تمنح مَن تعتقد أنهم جلادوها، أوسمة العدالة وصكوك الغفران.

سيلحظ القارئ أنني حرصتُ على الابتعاد عن استعمال مفردات إنجليزية بكل ما استطعتُ إليه سبيلًا، وأنْ لا وجود لحرف روماني (لاتيني) في كتابتي، هذا النوع من الكتابة الذي أصبح سائدًا مع الأسف الشديد، إذ شاعت كتابة أسماء المُدُن والبلدان والعلامات التجارية وسواها بتسميتها الإنجليزية، وكتابتها بالحرف الروماني (اللاتيني)، لكنني آثرتُ أن أقتفي أثر الروّاد في الترجمة، أولئك الذين كانت لغتهم العربية سلسة وأنيقة ومتكاملة، وتستشفّ الاعتزاز بها ؛لأن الأمّة كانت في دور صعود ومحاولة للحاق بالركب الحضاري، وتلافي ما فاتها بسبب الهيمنة الأجنبية وقرون الظلام التي أعقبتْ سقوط بغداد في سنة ١٢٥٨ ميلادية، لكننا اليوم نجد الشعراء والأدباء والكُتّاب يُكثرون الكلمات الأعجمية، ولا سيما الإنجليزية لغة بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكية، و كلا الدولتين عاثتا تدميرًا بهذه المنطقة؛ أكتب ليس بدوافع عربية، ولا عراقية، ولا إسلامية، بل هذه حقائق يعترف بها الكثير من المثقّفين الذين التقيتهم في آوتآرِوَا واليابان وجنوب شرق آسيا وأمريكا الجنوبية.

كتبتُ الكتاب، وفيه أيضًا، أوضحتُ أمرين أو أكثر، أوّلًا: أنني شاعر، لا أستطيع التخلّص من شغفي بالشعر، ويتّضح هذا عبر فقرات وجمل وأسطر، أكاد أزعم أن فيها شعرية واضحة. وثانيًا: أن تطوري الفكري والثقافي لا بدّ له أن ينعكس على تجربة الكتابة في هذا المجال، فرحلة البحث عن الكتاب التي قمت بها في آوتآرِوَا، كانت حصيلتها كبيرة من الكُتُب عن العراق، بعضها لم يصل إلى العراق، وبعضها طُبع قديمًا، وبعضها يخصّ أقلّيات أو مناطق هامشية، وهذه ساعدتني كثيرًا لمعرفة تاريخ تنوّعنا، وفَهم آليات الخطاب عند الأقلّيات، وعزّزَ هذا انغماسي بالمجتمع النيوزلندي اجتماعيًا وثقافيًا.

أدب الرحلات أدب قائم على وعي الذات الكاتبة بالمكان والمجتمع والبيئة، والتاريخ قائم على المنجز الثقافي والآثار والمسكوكات، والحوامل الاجتماعية، ويؤدّي الشعر فيه جوهر الحقيقة؛ لأن الشعر هو جوهر وروح النفس الإنسانية والهوية الثقافية، وإن بلدًا ما تتّضح هويّته الأمّ (الكبرى) عن طريق منجزه التدويني والشعر. فإن كان التدوين بلغة ما يُشكّل مُعظم ما دُوّنَ قبل الحرب العالمية الأولى، فهوية البلد بهذه اللغة، مع حفظ كامل الاعتراف والاعتزاز ببقية اللغات التي ساهمت بالمنجز التدويني، وعدّها

ثروة وطنية، لا يمكن التفريط بها، والتقليل من أهميتها ومكانتها.

أرجو أن يجد القارئ في كتابي هذا متعة القراءة، وإضافة جديدة إلى كُتُبي السابقة، وألتمس العذر عن سهو أو خطأ أو كبوة يراها قارئ ما، فلكلّ قارئ رؤيته، ولكل كاتب منهجه.

الخرطوم

في آوتَآرِوَا يُسَيطر الذين هم من جذور بريطانية بلغة إنجليزية ثقافيًا على مفاصل الدولة، وأعني أن لا وجود للغة إسكُتْلَندية وويلزية وإيرلندية في البلاد التي تضمّ مهاجرين صينيين ولبنانيين، ومن جزر جنوب المحيط الهادئ، لكن الذي جعل البلاد واقعيًا بلادًا ناطقة بالإنجليزية فقط على الرغم من القانون العامّ الذي يقول إن البلاد بثقافة مزدوجة إنجليزية ماؤرية، هو انعدام مُنجَز كتابيّ بلغة أخرى، فالماؤريّون قبائل شفاهية، والمهاجرون الصينيّون واللبنانيون وبقية الأعراق والقوميات، لم يكن بينهم شعراء وأدباء، لِيُخَلّفوا لنا منجزًا تدوينيًا بغير الإنجليزية، فضلًا عن الاحتلال الإنجليزي لأيرلندا وويلز وإسكتلندا ثقافيًا على الأقلّ، جعل لغة هؤلاء المهاجرين القادمين من هذه المناطق التابعة للتاج البريطاني الوحيدة هي الإنجليزية، لأن اللغات الويلزية والأيرلندية والإسكُتلندية كانت شفاهية.

ليس باستطاعة لغة المهزوم الشفاهية أن تفرض نفسها، وبقليل من الزعم، فإن لغة المنتصر الشفاهية ليس بإمكانها أن تفرض نفسها على اللغات المكتوبة. إذن إن الواقع يختلف، وعدم الاعتراف العملي بغير الإنجليزية، دعاني لتأمّل البلاد ومقارنتها مع العراق. ما توصّلتُ إليه أن المنجز التدوينيّ صاحب الدور الأهم في تشكيل ثقافة أيّ بلد ومجتمع، ومنح هويّته، فعراقة العرب في العراق، والتي تمتد إلى آلاف السنين، وليس مثلما هو شائع خطأ أنهم جاءوا مع الإسلام، واحتكاكهم التاريخي بالحضارات، جعلت اللغة العربية هي المُهَيمنة في العراق، وهذا ساعدها كثيرًا على أن لا تفقد هيمنتها، على الرغم من اندفاع أقوام أخرى وسيطرتهم العسكرية.

بدءًا من الفُرس الذين جاء بهم الخليفة العباسي المأمون مع سيطرته على بغداد، ومبايعته بالخلافة في سنة ٨١٣ ميلادية، ثمّ أخضَر أخوه المعتصم، بعد تولّيه الخلافة في سنة ٨٣٣ ميلادية، الأتراك لتبقى الهيمنة الغالبة لهم على امتداد ما يزيد على ألف سنة، حتّى الحرب العالمية الأولى، باستثناءات قليلة منها سيطرة البويهيين الفُرس ما بين ٩٤٥ -١٠٥٥ ميلادية،

ثمّ جاء الإنجليز الذين فرضوا الإنجليزية على عموم بريطانيا الكبرى وغالبية مستعمراتهم، لكنهم في العراق أخفقوا في فرض الإنجليزية، ونجحوا في فرض قوانين لتقوية اللغات الأخرى.

وعلى الرغم من هذا الضعف كله في المؤسستين السياسية والعسكرية حدّ التلاشي في العراق، بمعنى أن ليس للعرب في العراق من دور في هاتين المؤسستين، لكن اللغة العربية بقيت الأولى، ونتاجها هو الأضخم والأفخم، حتى ليكاد أن يكون النتاج التدويني والشفاهي في العراق بالعربية يتجاوز الخمسة والتسعين بالمائة من مجمل النتاج الكتابي والشفاهي، ولا ينافسه أحد، لكن، يسبقه نتاج باللغة السريانية فقط. والتراث السرياني شهادة براءة المسلمين العرب ممّا لُفِّقَ ضدّهم من حَرق وإتلاف المكتبات والتراث التدويني في المناطق التي سيطروا عليها، لأن هذا التراث بقيَ محفوظًا كاملًا حتى العصر العبّاسي الثاني، الذي لم تعد فيه للعرب من سلطة سوى سلطة رمزية متمثّلة بالخلافة، وكثير من هذا التراث بقي سالمًا إلى العصر الحديث.

حين أتأمّل تلك التسميات الكثيرة التي تمّ تغييرها من قِبَل النازحين الجدد، "هل أقول الغزاة؟" أتذكّر العرب وهم يؤسسون إمبراطوريتهم التي كان المفروض لها أن تكون قد انبثقت مع أذينة بن خيران، هذا الرجل المظلوم تاريخيًا، لأن المؤرّخين تجاهلوه، وهو أوّل ملك عربي استحقّ لقب إمبراطور، وبجدارة، فالتسميات غير العربية والتي سبقت الألف الثالث قبل الميلاد بعضها ما يزال حيًا بالتسمية نفسها أو بترجمتها، ومثال ذلك مدينة "سوق الشيوخ" السومرية، فما تم هو ترجمة التسمية إلى العربية بحسب ما أخبرني به بعض أدبائها، وهذه إحدى ميزات العرب التي تُحسَب لهم ظاهرًا، ولكنها تُخفي حقيقة علمية تقول إن العرب سكنوا المنطقة خارج نطاق شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، والشاهد ما ذكره العلامة جواد علي حول خبر قيام الملك نرام سين بإخضاع العرب حول بابل، أي قبل أكثر من أربعة آلاف عام[**].

دوّنتُ ذكريات وتداعيات وما عَلِقَ في الذاكرة، وتحدّثتُ عن حقيقة اللجوء المؤلمة، وأن هذه البلدان ليست فراديس وجنّات نعيم، وعن أكاذيب اللاجئين في الاضطهاد التي صدقوها حتى بعد حصولهم على الجنسية والجواز، وظلوا يردّدونها، أكاذيب لو صدّقنا عُشر معشارها لما بَقي مختلف في الدين أو المذهب أو القومية أو الإثنية في العراق، لأصبحنا منذ زمن طويل نتكلّم بلغة واحدة، وندين بدين واحد، ونتعبّد

بمذهب واحد، لكنها الطبيعة الإنسانية التي تقتلها الأنظمة في الإنسان، فتُشوّهه، وتُحوّله إلى شخصية عدائية مُستفزة، ديدنها الكذب، وتابعة ذليلة لعقلية وخطاب السلطة المستبدّة، أي تقوم بتنفيذ آليات ومفردات خطاب السلطة، عبر خَلْق خطاب مضاد لهوية السلطة، وليس لخطابها، وهو يُشكّل أسوأ مراحل الهوية تطرّفًا عندما تقع هذه الهوية ضحية للسلطة، الشخص المُشوّه، يقوم بإزاحة أسس الهوية تلك، ومناراتها وعمقها التاريخي التسامحي، ويعمل على تأسيس هوية من وحي خياله المريض ناسبًا كل موبقة للهوية الأمّ (الكبرى)، حتى إنه في معرض تأسيسه هذه الهوية - السردية، لا يلتفت للسلطة المستبدّة سوى في تنفيذ آلياتها "الجهنّمية" وتتضح هذه التّشوّهات أكثر في المختلف لغويًا، فالخطاب التأسيسي للمُشوَّه "الضحية" يقوم على بناء هوية عظيمة نقية عميقة الجذور في التاريخ، لا تشوبها شائبة، لم تعرف الظلم والقبح والقتل بحقّ الآخرين، وهي على أرضها التاريخية منذ آلاف السنين (جملة تردّدت كثيرًا في كتابات العنصريين غير العرب، كلّما أقرؤها أو أسمعها عند شخص ما أشعر وكأنه يفجّر المكتبات والمدارس والجامعات، وإلاّ فهو يسخر)، وفي خطّ مواز يُنشئ للهوية التي تنتمي لها السلطة سردية معاكسة تمامًا؛ وهذا ما يتّضح في خطاب الأقلّيات العِرقية واللغوية، فخطابها يخلو من أيّ ذِكْر لعراقة العرب في أعالي دجلة والفرات، وعلى سواحل البحر المتوسط، وفي عربخا (كركوك) وأربيل وامتدادًا إلى الجبال ونينوى صعودًا إلى نوهدرا، بل إن الجهر بهذا الكلام - الحقيقة التي ذكرها المؤرّخون الإغريق والرومان قبل الميلاد، لا يُعدّ مُحرّمًا فقط، وإنما إساءة عنصرية بالغة لهم، يُتّهم مَن يذكره بأنه عنصريّ شوفينيّ صدّاميّ بعثيّ، ولستُ أعلم هل أن هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) وسترابو (٦٤ قبل الميلاد) وسواهما كانوا بعثيين صدّاميين عفالقة عنصريّين شوفينيّين؟

اللجوء منح الحياة الكريمة لملايين البشر، لا شكّ في هذا، لكنه ثَبَّتَ سردية قائمة على الكذب والتزوير والمبالغات والكراهية بين أطياف المنطقة ومناطق النزاعات، أكثر ممّا سبّبته الأنظمة، واستعملته مراكز البحوث الغربية، ومن ثمّ الساسة؛ السبب الرئيس وراءه هو الأنظمة نفسها التي قتلت روح المواطنة، وهَشَّمَت تلك العلاقات الاجتماعية وثقافة التسامح التي أفضل أمثلتها هو حفاظ دمشق عاصمة أوّل إمبراطورية إسلامية على تفوّقها المسيحي حتّى سنة ١٨٦٠ ميلادية، إذ كانت نسبة المسيحيين تُشكّل خمسين بالمائة من سكّانها، والنصف الآخر يشكّله المسلمون واليهود وربّما ديانات أخرى، والأمر ينطبق على بيروت أيضًا،

ولم تتخلخل هذه النسبة إلا بعد دخول المبشرين الأوروبيين وقناصل حكوماتهم، فزرعوا الفتنة والكراهية، لتأتي الأنظمة الاستبدادية المتسلّحة بكل مساوئ الغرب كالنازية والفاشية والستالينية، فتعيث خرابًا، نحصد رماده وروائحه العفنة الآن.

تعلّمتُ في هذا البلد وأنا أخطو خطواتي الأولى باللغة الإنجليزية التي كانت سببًا من أسباب إخفاقي الدراسي مثلما أسلفتُ أن ثمة فرقًا بيّنًا بين المصطلحات، والمعرفة الدقيقة بها تحلّ الكثير من إشكاليات الهوية والحقوق والواجبات لكل مجتمع متعدّد اللغات والأديان والمذاهب، فمصطلح القومية يختلف عن مصطلح الإثنية أو العِرقية، فالأولى أكثر تطوّرًا، لأن شرطها الأوّل هو الكتابة والتدوين التاريخي والذاكرة الجمعية الكتابية التاريخية، وهذه الذاكرة لا بد لها وأن تكون قد مضى على تشكّلها الكامل أكثر من قرنين، وتشكّلها الأوّلي قرون عديدة قبل ذلك.

---

*) رانغي نِوي: إله السماء والأعالي في الأساطير الماوَرية

**) المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، الناشر جامعة بغداد، ط٢، ج٢ بغداد، ١٩٩٣:٥٧٣.

ثقة حزن يكتنفك، هو صديقك الأقرب، لا يغادرك تمامًا حتى في أكثر اللحظات فرحًا، كنتُ متلبّسًا بالسعادة، حين راحت طائرة الخطوط الجوّيّة الصينية، تحلّق في السماء، وأرض أوك (أوكلاند) أكبر مُدُن زي الجديدة (نيوزلندا) أصبحت بعيدة، تلك الخضرة تقبع في عزلتها وسط المحيط الهادئ. مدينة أفقية تنتشر في مساحات واسعة، تتراءى فيها جبال وخلجان وأنهار، هي العاصمة الاقتصادية للبلاد، وكثير من الناس يعتقدون أنها العاصمة السياسية، يكاد عدد نفوسها يقترب من ثلث مجموع سكّان آوٹآرِوَا، وهو الاسم الماوري لهذا البلد الذي يقع في أقصى جنوب الجنوب، وأهله يعترفون بنوع من الاعتداد أنه آخر بلد في العالم، وأوّل بلد يستقبل شروق الشمس، وأوّل بلد أعطى حقوق المرأة، ومنح السكّان الأقدم، أي الماوريين، حقوقًا واعترافًا. وجدتُ القوم يتباهون به مقارنة بجارتهم الكبيرة أستراليا، وبسيّدة العالم الرأسمالي الولايات المتّحدة الأمريكية، وهم أوّل بلد يمنع التدخين في الطائرات، وثمّة الكثير ممّا يقال عن آوٹآرِوَا.

قضيتُ في زي الجديدة ثماني سنوات وعشرة أسابيع، والآن أغادرها إلى هيروشيما، سأسكن هناك، إلى مقربة من حديقة السلام، والنقطة التي استقبلت أوّلَ جحيم بشريّ، أثبت فيه الإنسان أنه ليس خليفةً لله، بل خليفةً للشيطان، وأطلقوا على هذا الجحيم اسم "القنبلة الذرّيّة"، والفرح يملؤني لأني أوّل مرّة سأختار بلدًا، لم يُفرضْ عليّ، فالأردن كان خيارنا الوحيد للهروب من جحيم الحروب والطغيان والدكتاتورية وحماقات ونتائج هذه الحماقات التي تسبّبت بأبشع حصار لا إنساني، فرضه العالم المتمدّن على أعرق شعوب الأرض، وبُناة أوّل حضارة فيه، وكثيرًا ما سمعتُ من أفواه مثقّفيه ومعمّريه عندما أخبرهم بأني عراقيّ، يرددون جملة "هنا بدأت الحضارة" كأنهم حفظوها في المدارس، على الرغم من عدم وجود رابط يربط بين قائليها، لا وحدة الزمان ولا المكان، ولكنها حقيقة علمية نطقوا بها، وكان جوابي، ولكنكم "جازيتُمُوهم بدكتاتور قاتل، يتلذّذ بالدم، وبحصار لا إنساني، زاد من قوّته وهوَسِهِ بالسلطة والبذخ (في

إشارة إلى قصوره) هو وعائلته، وزاد من جوع وحرمان ومعاناة سليلي بناة الحضارات.

يقال إنّ الإنسان في اللحظة الأخيرة لاحتضاره، يمرّ شريط حياته أمامه بتفاصيل دقيقة، لكني أرى أنّ الأمر نفسه يحدث حين يقرّر الإنسان أن يتلاعب بمصيره، وينتفض، ليقرّره هو بنفسه، هذا ما حدث معي، وأنا أعبر الحدود مصادفة من العراق إلى الأردن، وما إن انتهينا من التفتيش وختم الجوازات في الحدود الأردنية، وانطلقت الحافلة، حتى انهمرت الدموع، وأنا أتلفّتُ إلى وطن، ظننتُ حينها بأني لن أراه، أو على الأقلّ، أحتاج لسنوات طويلة، وصدق حدسي، فقد عُدتُ له بعد غياب دام ثماني عشرة سنة وخمسة وعشرين يومًا؛ في تلك اللحظات مَرّ شريط حياتي كاملًا، طفلٌ تجرّع سُمّ اليتم والعمل المبكّر. وفي الثامنة من عمره، سمع الشعر يتلوه معلّمه في العمل وصديق أبيه الراحل، ممّا كان يُنشَر في جريدة طريق الشعب التي أدمن قراءتها، أحسّ بالشعر يلامس روحه، وحين اقترب من سنّ العاشرة من عمره، وكانت عمّته وعائلتها قد عادوا من بغداد للاستقرار في كربلاء، بعد أن قضى زوج عمّته حكمًا في غياهب سجون محكمة الثورة، لأنه " مُعاد للحزب (البعث) والثورة "، ذهب لابن عمّته، وقال له: أريد أن أصبح شاعرًا.

الحالة نفسها تكرّرت حين أقلّتني الطائرة من عمّان (مطار الملكة علياء) إلى زي الجديدة، مدينة "أوكلاند"، شريط حياتي وما جرى في الأردن لي، ما بين وصولي إلى عمّان في فجر الرابع والعشرين من شهر نيسان (الشهر الرابع) ١٩٩٣ وخروجي منه في الواحدة بعد الظهر من يوم الاثنين التاسع عشر من شهر أيّار ١٩٩٧م، أي عبر أربع سنوات وستّةٍ وعشرين يومًا، هي مدّة مكوثي في عمّان، التي أحببتُها، على الرغم ممّا عانيته فيها، وأشهد أني عانيتُ من بعض صحبي العراقيين أكثر بكثير ممّا عانيته في العمل الذي لم يكن جحيمًا، وفي الوقت نفسه يبتعد عن كونه جنّة كثيرًا، وأشهد أنّ فيه ذكريات جميلة، وتعلّمت منه الكثير، واحتفظتُ بصداقات نبيلة، إذ أحرص على لقاء الأصدقاء كلّما أزور عمّان، وبعضهم علاقتي بهم متينة، فهي عائلية، أو تكاد تكون كذلك.

الآن نحن في المياه العمياء، أي فوق المحيط الهادئ، وأرض إوي، وهو أحد أسماء زي الجديدة، تبتعد وتكاد لا تُرى إلا طيفًا، لكن جراحها عالقة في الروح، مثلما ذكرياتها المفعمة بالحبّ والنجاح والتألّق والإصرار والعمل على تجاوز الذات، ذكريات العمل المريرة التي تمّ استغلالي فيها؛ لأن

لكنتي الإنجليزية تقول إني غريب اللسان، هل أنا غريب اللسان فقط؟ آه، يا أبا الطيّب المتنبّي، لو جئت إلى هنا، لعلمتَ أن شِعب بوان، ليس بأجمل وأبهى، ولكن الغربة هنا أقسى، والنأي خَلْفَ بحر الظلمات والبحار السبعة وراءه.

التقديم لطلب اللجوء من المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في عمّان

كانت الإقامة في عمّان ليست سيّئةً للغاية بالنسبة لي، فأنا مصوّر فوتوغرافي محترف، وفي عمّان، تعلّمتُ طباعة الأفلام الملوّنة، ومن ثمّ بعد طول عناء، وجدتُ عملًا في مركز تسويقي هو (الأهلية أبيلا) في منطقة الشميساني، مقابل مستشفى الأردن، التي يعمل فيها صديق الشعر والمنفى عبود الجابري، وهناك قضيتُ ستة عشر شهرًا، كانت من أفضل أوقات وجودي في الأردن. قرأتُ الكثير، وأنجزتُ الكثير أيضًا، وفيها أنجزتُ قراءتي للمذاهب الإسلامية؛ وفيها سمح لي وقت العمل الذي كان مناوبة، صباحًا ومساءً، لا يختلف عن أوقات الدوام في المدارس العراقية، بسبب النقص الكبير في بنايات المدارس. أقول سمح لي بالذهاب إلى مبنى المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين في الشميساني، وهي ليست بعيدة عن مكان عملي، ربّما نصف ساعة مشيًا على الأقدام.

لم أكن أتوقّع قبولي بهذه السرعة والسهولة، ففي الثاني والعشرين من شهر تموز ١٩٩٦ ميلادية، قدّمتُ طلبًا للجوء إلى المفوّضية السامية، حين وقفتُ أمام الشباك، وهو من شبكٍ أيضًا، سألني الموظّف هل هو تقديم جديد؟ أجبتُ نعم، دخلتُ، وجلبوا لي استمارة، ملأتُها، في آخرها مستطيل لكتابة حكايتي مختصرة، أي التي على ضوئها يتمّ قبولي أو لا، جاءني رجل معروف عند العراقيين يُدعى "أبو العبد"، وقال اختصر، حين رآني تأخّرتُ، فإن المقابلة هي التي تحدّد المصير، حمل الاستمارة وملفّي الذي يحوي جواز سفري العراقي الذي قارب على انتهاء الصلاحية، وقصائدي، كنتُ أعوّل على قصيدة نشرتُها في حينها في صحيفة القدس العربي في لندن، وعنوانها (عبرت الحدود مصادفةً) اكتشفتُ أنها ليست مع الأوراق، حزنتُ للأمر ظنًّا أنها تنفع كثيرًا، جاءني "أبو العبد" بعد وقتٍ ربّما أكثر من ربع ساعة، ومعه ورقة صغيرة، فيها موعد المقابلة، لم أصدّق نفسي، وأنا أقرأ الموعد المحدّد نظرًا لأن مواعيد الأصدقاء، وهم شعراء، بعضهم لهم شهرة كبيرة في العراق، عكسي أنا المجهول ربّما تمامًا، كانت تحتاج إلى ستّة شهور في المتوسط، في حين موعدي، كان في الحادي والثلاثين من شهر تموز نفسه، أي تسعة أيّام مع يوم المقابلة.

كانت أيّامًا عصيبة تلك التي انتظرتُها، وفي أثناء المقابلة، سألني

المحامي "سامر حدّادين"، وكنتُ أجهله في حينها، عدّة أسئلة، منها هل أنت مُضطَهَد في العراق، لأنك شيعيّ، استفزّني هذا السؤال، لأني ما عارضتُ يومًا بسبب دين أو مذهب أو قومية، إنما عارضتُ وأعارض، لأني مؤمن بدولة مَدَنية علمانية، تؤمن بحقوق الإنسان، وبالتنوّع والتداول السِلْمي للسلطة، وكان السؤال الآخر، أيّ بلد تُفضّل أن تَتَوَطّنَ فيه؟ فكان جوابي: لا يوجد بلد في العالم يُضاهي العراق، ولا عاصمة تُضاهي بغداد، وما أتمنّاه أن تنتهي الدكتاتورية والظلم والأيديولوجيات من العراق حتّى أعود إلى ضفاف الفرات ودجلة، وإنّ حلمي أن أسكنَ بغداد، فهي أحبُّ المُدُن إلى روحي، لكن، بما أن لا مجال لهذا الأمر الآن، وأن عمّان ليست آمنة، فلا إقامة ولا عمل رسمي، والسفارة العراقية لها عيونها وأزلامها ومخبروها، فأيُّ بلد أجد فيه الأمان وأنْ أقرأ وأكتب وأنشر بلا رقيب، سيكون مرحّبًا به.

أعترف أني أفتقد لقوّة وسرعة البديهة، وهذا مُتأتٍّ ربّما لأمرَين: أنني لستُ بدويًا، ولا ريفيًا، وأن ظروفَ حياتي كشخص عاش طفولته ومراهقته بلا أبوين، وصرامة تربية جدّتي لأبي الدينية، ألقتْ بظلالها على شخصيّتي، وهذا ما جعلني أخشى المقابلات المباشرة، وعرّضني لسوء فَهم الكثير من الأصدقاء، فهؤلاء ظنّوا أنني ضعيف الشخصية، وبعضهم أسقَطَ ذلك على كتاباتي وقراءاتي، وأنا أمضي بدون تلفّتٍ، مؤمنًا بأن متعتي وخلاصي ومستقبلي هو الشعر والكتابة. ذكرتُ هذا لأوضّحَ كيف تأتّتْ لي سرعة البديهة وقوّتها في واحدة من أهمّ اللحظات التي شكّلت انعطافة تاريخية في حياتي، فبينما كنتُ في عمّان من دون إقامة، جاءت تلك المقابلة التي حقّقت لي أحلامًا، ما كان لي تحقيقها، أقول هذا، وأنا أصرّ على أن معظم اللاجئين أكلتهم المنافي وبلدان التوطين، ضعفتْ مواهبهم الكتابية، حتّى ليُشعروك أنهم جعلوا بلد التوطين منفىً، يقتاتون به على ذكرياتهم، مستخدمين المعونات الاجتماعية التي تدفعها لهم هذه البلدان، لتزويد أجسادهم بالكحول، ومواهبهم بالخمول، إلا فئةً، أثبتت أن مجالَ المبدع الحقيقي هو إبداعه الحيويّ، وليس المكان، بل موهبته، وهؤلاء لا فرق إن عاشوا في مناطق الطفولة، أم استقرّوا في بلدان اللجوء، أو تنقّلوا بين بلدان عديدة.

بعد انتهاء المقابلة، أخبرني محامي المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين، أنْ أراجعهم، لأعرف النتيجة بعد عشرة أيّام، فسألتُه مؤكّدًا: هل تعني في العاشر من شهر آب؟ لأننا في الحادي والثلاثين من شهر تموز.

أجابني بجملة "لا أدري، احسب عشرة أيّام، واتّصل هاتفيًا" لم يكن ينوي التأكيد، لأن القول "نعم في العاشر من آب" يعني دقّة في الموعد، وهو كان حذرًا في هذا الأمر. بعد الاتّصال بهم، أخبروني أن المكتب الذي يعطي نتائج القبول والرفض، في عطلة، بعد أيّام عدّة، كرّرتُ الاتّصال والمكتب مغلق، ثمّ كرّرتُ الاتّصال بعد يومين أو أكثر، أخبروني أن أحضر إلى المفوّضية. أعطيتُ اسمي الكامل ورَقْم ملفّي، نظر الموظّف في قائمة الأسماء، وقال لي ادخل .

دخلتُ، وأنا أجهل أنّ هذا يعني أنني مقبول لديهم لاجئًا، ولو كنتُ مرفوضًا، لأعطوني ورقة الرفض عبر الشبّاك. كانت الدقائق تمرُّ ثِقالًا، وكنتُ في حينها أدخّن، صرتُ شرهًا في التدخين، حتّى جاء "أبو العبد"، وناداني قائلًا الباحثة الاجتماعية في مهمّة عمل خارج المكتب، ولن تعود قبل الغد، اذهبْ، وتعال غدًا، هل جوازكَ معك؟ أجبتُه نعم. قال اجلبه، فأنت مقبول، كانت أوّل مرّة في حياتي أتحدّث بطريقة تلقائية، لم تُغيّرها الكُتُب والقراءات والاختلاط. أثنيتُ عليه بعفوية وبلهجة كربلائية مغرقة في محليتها، فردّ بدماثة وحسٍّ أبويٍّ، كأنه خبرَ معاناة العراقيين، فقد خبر فحوى إغراق العراقي في مَحَلّيَتِهِ في أكثر اللحظات عاطفية في حياته.

صدق الشاعر قيس بن ذريح حين قال:

نهاري نهار الناس حتّى إذا بدا لي الليل هزّتني إليك المضاجعُ

أُقَضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والسهد بالليل جامعُ

فلقد مرّت الساعات ما بين العمل والناس، وحين جَنّ ليلي، لم أنم، كنتُ في ساحة البيت في جبل الجوفة، فوق مكتبة أمانة عمّان، وقريبًا من المدرج الروماني، تفصلني عن ظهر المكتبة مساحة عبور شارع ورصيفين وجزرةٍ وسطية ومئةٍ وأربعين دَرَجةً، كان الطقسُ جميلًا، فالليل يقترب من منتصفه، ولم أنم. مرّت الساعات الستُّ كالجحيم حتّى اكتمال شروق الشمس ومسك صولجان السيادة المطلقة على النهار، لأوّل مرّة في حياتي شعرتُ بأنّ الفراش الذي أنام عليه قد تحوّل قطنُهُ إلى أفاعٍ، نعم، هذا ما شعرتُ به، وما يزال طعم تلك الليلة المليئة بالترقّب وبما ستؤول إليه الأمور عالقًا في النفس والذاكرة، لم أكن أعلم أن المفوّضية لا يمكن أن تسمح بدخول شخص إلى داخل بنايتها إلا لثلاثة أمور: تقديمِ أوّليٍّ، أو مقابلةٍ، أو مَن تمّ قبول طلبه مثل حالتي.

كنتُ قلقًا يمشي على الأرض، حاملًا هموم السنوات المليئة بالأسى والخيبات، وما تعرّضتُ له في حياتي من انكسارات، منكسرٌ أنا، ولكن، بقوّة انكساري أقبض على أملٍ عظيم، وإرادة يراها الناظر هشّةً، وهي أقوى من الفولاذ، لولا الأمل والإرادة، وعلى الرغم من إيماني، إلا إنني لم أحقّق الكثير ممّا حلمتُ به في سنوات التشكّل الثقافي الأولى، يوم كنتُ لا أجرؤ على البوح بالرغبة الملحّة في أعماقي أن أقوم برحلة لا تُشبه رحلات ابن بطّوطة، ولا ابن جبير، ولا مغامرات المتنبّي والشاعر الفرنسي آرثر رامبو، ولا البياتي والجواهري وبابلو نيرودا، وسواهم من الشعراء والأدباء والمفكّرين والباحثين، الذين أشعلوا جمرة التمرّد في تفكيري، تمرّدًا لا يحتفي بالسطحيات التي راح ضحيّتها بعض الشعراء والأدباء ؛ الرحلة التي تمنيتُها لا تشبه سوى شخص واحد في هذا العالم، هو قارئ الكُتُب باسم فرات.

كان وصولي إلى مقرّ المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، قبل الدوام الرسمي، وقيل لي أن أنتظر، قابلتْ الباحثة الاجتماعية، سألتني هل لديك أقارب في بلد ما؟ لم أخبرها أن ابن خالتي يعيش في الولايات المتّحدة الأمريكية، أخبرتُها أن أغلب أصدقائي في هولندا، كانت تتكلّم العربية بطلاقة، وعلمتُ بعدها أنها أمريكية، احتفلتُ بتلك الليلة، فحياتي تغيّرت من الآن، وعلى الرغم من أنني لم أكذب حين سألتني هل تعمل؟ أجبتُها بنعم، أعمل في الأهلية أبيلا، لكنه ليس مستقرًا، فليس بيني وبين ربّ العمل علاقة وديّة، مع ذلك، صرفتْ لي راتبًا، ومقداره مئةُ دينار أردني، ولأني استلمتُ راتبًا ونصفه، أي نصف آب مع شهر أيلول، واستلمتُ راتبي من العمل، قمتُ، وهذا بفضل عمّي الذي كنتُ أسكن معه في عمّان، والذي كان صارمًا معي في تلك المرّة، بإرسال مبلغ من المال إلى أمّي في العراق، كان يُعدُّ أكبر مبلغٍ وصلها منّي وأنا في عمّان .

بعد مدّة وجيزة، جاء وفد هولنديّ، قدّموا ملفّي إلى الوفد، قرأ الملفّ، ورفضني من دون مقابلة، انتظرت مدّة تزيد على الثلاثة أشهر، ما بين قبولي لاجئًا، وكان ذلك في الحادي عشر من شهر آب ١٩٩٦، ولكني استلمتُ النتيجة في الثامن عشر من شهر آب، ومقابلتي للوفد النيوزلنديّ في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني (الشهر الحادي عشر) ١٩٩٦ ومسؤولة الوفد وهي إيرانية الأصل بهائية الديانة، كانت لطيفة في الحديث وطرح الأسئلة، وفي أجوبتها عن أسئلتي القليلة، ربّما لأني لم أكن متحمّسًا للغاية، على الرغم من أنني فتحتُ الأطلس قبل المقابلة، وقرأتُ عن زي الجديدة، كانت دهشتي كبيرة وأنا أردّد في أثناء القراءة: حتّى أبي ربّما لم يسمع بهذا البلد، إنه في أقصى جنوب الجنوب. الجملة نفسها رددتُها أمام مسؤولة الوفد حين سألتني عن موقع بلدها، ولا أدري هل المترجمة قامت بترجمة جيدة لها أم لا، لكني حين أخبرتُ الشاعر حسب الشيخ جعفر ونحن نسير في وسط البلد في عمّان، ليس بعيدًا عن الجامع الحسيني، وسبيل الحوريات، أخذها بحساسية شاعر مبدع خلاق، وراح يردّدها مؤكّدًا أنها صورة شعرية جميلة، وهو ما دعاني لتدوينها بعد وصولي إلى زي الجديدة بفترة في قصيدتي (جنوب مطلق).

واظبتُ على قضاء وقت الصباح في مكتبة عمّان الكبرى، قرأتُ كثيرًا عن القرامطة والخوارج والمعتزلة والشيعة وبقية المذاهب والحركات الإسلامية من وجهات نظر مختلفة، وكُتُبًا أخرى في مجالات الشعر والرواية والكُتُب النقدية، وإلخ. فلم يبقَ على وجودي في عمّان والعالم العربي سوى أيّام مهما طالت، وبعد مضي أكثر من أربعة أشهر، عملتُ في شركة كوداك التي تملكها مجموعة شاهين في عمّان، وكانت تجربة سيئة، ما إن أكملتُ الشهر حتّى جاءت الموافقة على توطيني. ففي الثلاثين من شهر نيسان اتّصلوا بي لأراجع منظّمة الهجرة العالمية، وأقوم بإجراءات السفر، وتمّ تحديده في التاسع عشر من شهر أيّار ١٩٩٧.

أصبحتُ أسير في طرقات عمّان، وأتأمّل بناياتها وأسواقها وآثارها ومعالمها وناسها، تأمُّلَ مغادرٍ، ربّما يحتاج لسنوات طويلة حتّى يراها مرّة

أخرى، على الرغم من كل شيء، أحبّ عمّان، فهذه المدينة مشكلتها هي أن انعدام النهر والبحر والاستواء وطول فصل الجفاف فيها، جعلتها مدينة لا تفتح ذراعَيها بسهولة، يحتاج القادم إليها إلى شهور طويلة، قد تزيد على الثلاثين شهرًا، وربّما إلى سنوات حتّى يتفاعل معها، وتتغلغل إلى أعماقه، ويتصالح مع تضاريسها الوعرة، وجديّةِ أهلها، هذه الجدّيّة الواضحة، يُخفِّفُ حِدَّتها جمال نسائها وأنوثتهنّ ولطفهنّ وكرمهنّ ورقّتهنّ.

كنتُ أفكّر بالمدينة، وأشعر بأسىً لفراقها حتّى بعد أن أكملتُ التجهيزات، وودّعتُ الأصدقاء، وذهبتُ إلى المطار؛ ربّما أنني متصالح مع المكان، وهذا ما كنتُ أجهله في حينها، فليس من السهل أن تتعرّف على نفسك بسرعة، معظم الناس يحتاجون إلى عمر طويل وعقود من السنوات، حتّى يكتشفوا جزءًا من ذواتهم، فاكتشاف الذات اكتشافًا تامًّا أصعبُ من الوصول إلى الشمس، ومعظم الناس يموتون، ولم يكتشفوا ربع ذواتهم، وربّما أقلّ من عُشرها. أتذكر تمامًا الآن أنني لم أدخل في نقاش حول عمّان لا لصالحها ولا لضدّها، لكنني أعترف بأني أكنّ حبًّا وشغفًا لهذه المدينة، لم تُزخهُ مئات المُدُن التي تنقّلتُ في ربعان صباها وخمائل أنوثتها، ربّما أنا العاشق الذي يُغرم بكل مدينة يمرّ فيها، ويبقى وفيًّا لهنّ جميعًا بالمستوى نفسه .

كان فرحي كبيرًا، وأنا أنتظر خبر مغادرتي إلى آوْتَآرِوَا، فرحًا مشوبًا بالقلق والخوف، كان أكثر ما أخشاه هو أن تبرد جمرة الشعر المتوهّجة في روحي اللائبة، حتّى إنني أخبرتُ شخصًا حين دار الحديث بيننا عن آوْتَآرِوَا، أنني سأعود إلى عَمّان، لو اتَّضَحَ لي أن جمرة الشعر انطفأت، ذلك الشخص الذي كان يملي نصائحه عليّ (أستَذَةٌ) ومَلَفَ لجوئه قوبلَ بالرفض من قِبَل المفوضية السامية. عشتُ تناقضًا في تلك الشهور، ففرحي المشوب بقلق وخوف، جعلني لصيقًا بعمّان أكثر، فعمّان في تلك السنوات العجاف، هي الرئة الوحيدة التي سمح بها العالم المتحضر جدًّا للعراقيين أن يسافروا إليها، وكان العراقيُّ الذي يحصل على عقد عمل من السفارة الليبية، تحمله الحافلة إلى العقبة، ومن هناك ينتقل بحرًا إلى ميناء نويبع، فيتمّ وضعهم في حافلة تحت حراسة مشدّدة إلى الجهة الأخرى من مصر، عند الحدود الليبية، هذه الصورة التي أنقلها عن وضع العراقيين، أراها تفي بالغرض لما كُنّا نعانيه.

آوْتَآرِوَا ليست مرتبطة تاريخيًّا بالعالم العربي، عبر احتلالات صدّام ومعاهدات وعلاقات دبلوماسية قوية، مثلما عليه الحال مع بريطانيا

وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، وغيرها من الدول الغربية، التي تساعد مُخَيلتنا في بناء تَصَوّرٍ ما لحياتنا هناك؛ كنتُ أشحذ مُخيلتي، ولا أرى إلا قلقًا، وصور الشعراء والأدباء ممّن كانوا فاعلين في الحياة الثقافية في بغداد السبعينيات أو الثمانينيات، وقد بَهُتَ مستواهم الإبداعي، وبعضهم اضمحلّ، وكثيرون تحوّلوا إلى الصحافة، أو التعليم الأكاديمي، أو التجارة، وأنّ نسبة كبيرة بينهم كرّسوا طاقاتهم في خدمة سيّدٍ جديد، ممّا جعلني أعي، بعد وصولي إلى آوتّآرِوَا، أي خيانة ارتكبها هؤلاء، خيانة أراها أكثر وطأة على المعرفة وبناء دولة مَدَنِيَّة، تستلهم النموذج الغربي بوعي وحذر، بحسب مفاهيمي اليوم التي صقلتها التجارب بين دول عديدة وثقافات كثيرة، وقراءة واعية لهويّتنا مَبنية على فَهم الأصول جميعها (دين، طائفة، مذهب، قومية، إثنية)، نعم، خيانة أكثر وطأة لسببين: الأوّل أننا ننظر لمَن خانوا المعرفة والثقافة، وانخرطوا في مشروع الدكتاتورية وعنفها الداخلي والخارجي نظرة سلبية مملوءة بالازدراء والتهجّم، تصل في معظمها إلى حدّ الإقصاء، لكننا على العكس تمامًا مع مَن يعيشون في بلدان اللجوء والهجرة، وتمتّعوا بكل امتيازات الغرب وخطابه المَدَني وضمانه الاجتماعي الذي يُبعد الإنسان عن مَدّ يده وإجباره على بيع قلمه، لكن هؤلاء لم يكتفوا بخيانة العراق والثقافة والوعي، وإنما جعلوا هذه الخيانة أكثر بشاعة عندما انخرطوا في مشاريع طائفية بغيضة، أو مشاريع قومية شوفينية عنصرية تستند على تدمير العراق والعرب، عبر إشاعة خطاب يُزوّر حقائق التاريخ والجغرافيا والثقافة، والتركيز على أكذوبة "أن العراق وطن اصطنعه الإنجليز" وأن "العرب لم يعرفوا المُدُن والجبال والسهول والأنهار والبحار قبل الإسلام المَبني على السيف، ولا شيء سوى السيف.

لم أكنْ مثلَ ذلك الشابّ الكربلائي، ذي الأصل الفارسي، والذي قرّر نظام صدّام حسين طردهم من العراق بطريقة لا إنسانية، وتتناقض مع أبسط قواعد الأعراف والمُثُل العربية والإسلامية والدولية. حدّثني ذلك الشابّ أنه في مدّة السجن كان يحلم بإيران، وكيف ستكون حياته ناجحة ومدهشة، كان يحدّثني وكأن إيران جنّة الأرض، وسوف يستقبلونهم بالورود والكرم العربي الذي لا يعرفه الفُرس، كان ذلك الشابّ صادقًا فيما قاله وفكّر فيه، فهو مثل أيّ مُؤدلجٍ رسم صورة خيالية لبلد أبويه أو جدّيه، ولا يختلف الأمر عند القومي العربي المؤدلج الذي يصرّ على أن العراقيين كانوا سعداء، ويعيشون في أمان وكرامة وكبرياء ووطنية عالية قبل الاحتلال الأمريكي، وربّما صِغَر سِنّهِ وهو فتى لم يبلغْ، وفي بداية مراهقته حينما حلم وتخيّل إيران في السجن، أو حين أخبرن،ي ولم يبلغ العشرين

آنذاك، يشفع له ما قال، ويجد له مبرّراتِهِ، ولكن، كيف بالصرّاف العراقي في عمّان حين دخلتُ أصرّف مالًا في دكّان صرافة، وراح يحدّثني وهو العراقي بنبرة القومي العربي الفلسطيني، أو المغربي، أو السوداني، وزاد عليهم بجملة لا أظنّ أن شخصًا يتجرّأ على قولها لو لم تتمكّن منه الطائفية البغيضة حدّ أن يرى أنّ مساوئ أشرار قومه أشرف وأجمل وأبهى من محاسن أخيار الآخر المختلف معه مذهبيًا، قال مفاخرًا إن الجواز العراقيّ قبل الاحتلال الأمريكي للعراق، كان جوازًا محترمًا أمام السفارات، ولا وجود لمشكلة في الحصول على تأشيرة دخول إلى أيّ بلد في العالم؛ هكذا بكلام مُرسَل يتناقض مع أبسط قواعد العقل والواقع، وأمامي أنا الذي أخبرتُه عن معاناتنا في عمّان التسعينيات أمام السفارات، لكن جرأة هذا الطائفي البغيض لا تُدمّر أوطانًا، مثلما عليه حال مَن لا هَمّ له إلا التأكيد على وَهمه المريض بأنّ العراق وطن اصطنعه الإنجليز، وأنّ قومه أصحاب الحضارات القديمة كلها وأصل الأديان والأنبياء والعلوم والمعارف والأدب، وأنّ أدبه سبق الأدب العربي باثني عشر قرنًا، لكنه حين تحدّث عن هذا الأدب لم يستطع أن يذكر أكثر من مئة وسبعين شاعرًا وأديبًا ممّن ماتوا قبل سنة ٢٠٠٥ وإن الشعراء والأدباء ممّن وُلدوا في العراق قبل تنصيب الملك فيصل الأوّل (١٩٢١م.) لم يصل إلى ربع هذا العدد ربّما.

قلقٌ عشتُه ومشاعر شتّى تنتابُني وأنا أنتظر وصول الموافقة على سفري إلى منفاي الجديد، ربّما لأنني لا أعرف العيش في أحلام وردية، قوامها وأساسها يُبنى على الإساءة لوطني ومجتمعي، وهذه الهواجس تختلف عمّا كانت عليه هواجسي قبل مغادرتي العراق، فتلك مشاعر مشوبة بحذر شديد، لم أخبز أحدًا إلا المقرّبين، زرتُ بغداد ومناطق متنوّعة من كربلاء، كنتُ أتصرّف بصفتي سأغادر العراق نهائيًا، ولا أعلم متى أعود، قد يأخذني المنفى نهائيًا، لكن، ثمّة حدس أنني سأكون في العراق حين أبلغ الخامسة والأربعين من العمر، لأنني كنتُ أقول لنفسي لو غادرتُ العراق، فلن أعود قبل أن أبلغ الخامسة والأربعين من العمر، ومن غرائب المصادفات، أنني غبتُ عن العراق ثماني عشرة سنة وخمسة وعشرين يومًا، وحين دخلتُه كان عمري أربعة وأربعين عامًا وشهرين وثمانية عشر يومًا!.

كانت هواجسي قبل مغادرة العراق، هي الرعب من أن تأتي اللحظة الأخيرة ويتغيّر مسار حياتي نحو الأسوأ، كنتُ قلقًا وخائفًا حتّى تمّ ختم الجواز في الحدود، وتحرّكت الحافلات، ووصلنا الحدود الأردنية، وختموا

جوازاتنا، حين غادرنا الحدود العراقية بكيث وكأني لن أرى العراق لسنوات طويلة، كنتُ طوال الوقت ألتفتُ نحو العراق، وحين غاب العراق عن العين، تلفّتَ القلبُ مثلما قال الشريف الرضي:

وتلفتــت عــيني فمــذ خفيــت عنّي الطلــول تلفّــتَ القلب

وصلتُ المطار متأخّرًا، وكان قريبٌ لي قد وصل قبلي، وحين نادوا اسمي قدّمَ نفسه على أنه أنا، ما إن وصلتُ حتى قال مندوب منظّمة الهجرة العالمية يجب الآن أن ندخل لوزن الأمتعة والتفتيش، فنادى علينا، تفاجأ، وهو يرى شخصًا آخر، فأخبرتُه سبب تأخّري، وأن قريبي أراد أن يتدارك الموقف، لأنه يعلم أن تأخّري لن يطول. كان أحد الأصدقاء قبل ليلتين قد تبرّع لي بحقيبة وقريبي بأخرى، ملأتُهما بالكُتُب، كانت ملابسي قليلة، ولكن الكُتُب وزنها ثقيل للغاية، ومن حسن الحظّ أن عوائل عراقية كثيرة الأطفال كانت معنا، ممّا ساعد على أن لا اعتراض ولا غرامات على الوزن، أتذكّر لحظتَها حين قال الموظّف: اجلبوا تلك الحقيبة، وأشار إلى إحدى حقيبتَيّ، كانت مفاجأة للشخص الذي حملها، كان قويًّا، وظنّ أنها مجرّد حقيبة مملوءة بالملابس، حينها قال لي: هل وضعتَ فيها حجرًا ؟.

التقينا عوائل قادمة من دمشق، عراقية وصومالية وثلاثة شباب إيرانيين، أحد الصوماليين واسمه "إسماعيل إبراهيم الحلبي"، وكان يعمل موظّفًا في المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين في دمشق لمدّة أربعة أعوام، والصوماليون يُطلقون عليه الحلبي، لأنه درس في كُلّيّة الهندسة الميكانيكية في حلب، وهو من شمال الصومال، كان خير عون لنا، في الطريق الطويل ما بين عمّان - المنامة - سنغافورة - أرض أوك (أوكلاند) لم يدّخر جهدًا في المساعدة، وربطتني به علاقة صداقة، ما أزال أعتزّ بها. في الطريق الطويلة، انتبهت إلى عوائل عراقية سريانية، تتحاشى الحديث معنا، على العكس من شابّ عراقي سرياني أيضًا، كان مثالًا للخُلُق الرفيع، حسبتُ الأمر مجرّد قلق لاجئين ذاهبين إلى بلد التوطين، وليس لديهم أيّ تصوُّر عمّا سيحدث لهم، فضلًا عن عدم حقّ رفض بلد التوطين للاجئ، الذي قرّرته المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين منذ الأوّل من شهر تشرين الثاني ١٩٩٦، ممّا ترك انطباعًا سيئًا عند اللاجئين.

الوصول إلى آوتَآرِوَا

في الثانية عشرة وأربعين دقيقة بعد ظهر يوم الأربعاء المصادف الحادي والعشرين من شهر أيّار ١٩٩٧ وطأتْ قَدَماي أرض المطار في زي الجديدة، (في مطار أرض أوك). هنا أنا في العالم الجديد، في أحد أحدث البلدان في العالم، بلد تأسّس في عام ١٨٤٠ ميلادية، أتيتُ من أعرق بلدان العالم إلى أحدثها، هذا ما كنتُ أقوله للناس، كنّا نمسك حقائب بلاستيكية زرقاء، عليها علامة الأمم المتحدة، كان في استقبالنا موظّفٌ من مركز مَنفَري للاجئين، وهم يرفضون القول بأنه مخيّم، فهو مركز، لأن كلمة مخيّم ثقيلة على النفس؛ في حافلات ذهبنا إلى مركز اللاجئين.

كان الخريف يطرق أبوابه، والأمطار تمشّط شعر الأمكنة ساعة أو أقلّ أو أكثر وتستريح، وقد تطول استراحتها لبضع ساعات، وربّما دقائق معدودات، أتيتُ من منطقة تُشكّل الصحراء مساحة كبيرة من أراضيها، حتّى أصبحت الـمُخَيّلة تنسب اللغة العربية والثقافة العربية والعرب جميعًا إلى الصحراء، وهم في غالبيتهم العظمى، تاريخهم وثقافتهم ومُخيّلتهم ووعيهم نهري أو بَحريّ أو جبليّ، وهم الغالبية العظمى من العرب، بينما كانت خضراءَ خضراءَ خضراءَ هذه الأرض، يخرج الأخضر مادًّا لسانه ساخرًا من الإسفلت فيها، فلم أعلم أن للأخضر قدرة على إحداث شقوق في الإسفلت والخرسانات (الكونكريت) مستهزئًا بالصلابة.

في مركز منغري

كان وصولنا بعد الظهر، بحدود الثانية، أو بعد ذلك، تناولنا الغداء، وتكرّر معي القول نفسه فيما يخصّ حقيبتي التي لم يزاحم الكُتُب فيها شيءٌ؛ كان معظم اللاجئين من العراقيين الهاربين من جحيم الحروب والحصار والدكتاتورية، وغالبيتهم من المسيحيين، ولاسيما السريان، كانت دهشتي في هذا المركز كبيرة، بل هي دهشة متنوّعة، هذا البلد الذي ما يزال تحت تاج الملكة إليزابيث الثانية، ولكنّه مستقلّ عن بريطانيا، فهو من دول الكومونولث، الإنجليزية لغته الأولى، ويعدّ نفسه حسب القانون ثنائي الثقافة، الماورية والإنجليزية، وعليه تكاد تكون معظم أنظمته بريطانية؛ لكن الدهشة الأكثر إيلامًا كانت تصرّفات العراقيين غير العرب، فنظرتهم لنا وكأننا من جلادي سجون الأنظمة العربية، ونحن جميعًا لاجئون، وفي مركز اللاجئين، حسبتُ الأمر أوّل مرّة، أنها ردّة فعل لتغيّر المناخ والبيئة وقلق اللجوء وعدم الاستقرار، ففي هذا المركز، لاحظتُ أن النفوس مرهقة متعبة قلقة، والجميع يحسب الأيّام، ليخرج للمجتمع، ويشعر بأنه مواطن يواجه الحياة.

لا شكّ أن مدّة الأسابيع الستّة التي يقضيها اللاجئ في مركز اللاجئين في منغري، لا بدّ منها، ففيها أجرينا فحوصات عامّة، عيون، أسنان، أنف وحنجرة، أشعّة، دم؛ وتعلّمنا قوانين كثيرة، ما لنا وما علينا، فضلًا عن دروس في تعلّم اللغة الإنجليزية، وحضر ممثلون عن الشرطة، ليشرحوا لنا قوانين السير، وكيف نتعامل مع اللصوص، وهناك لاحظتُ أحد أوائل اختلاف المفاهيم والثقافات، فلقد ضجّت القاعة بالاعتراض، كيف تريدوننا أن نتعامل مع اللصوص من غير عنف، ونتركهم يسرقوننا، ونحن نتصل بكم، ونتفرّج، كانت القاعة تضمّ عراقيين، من خلفيات دينية وعرقية وقومية مختلفة، واتّضحت وحدتهم ووحدة ثقافتهم حينما اعترضوا، وبسخرية راحوا يُطلقون النكات التي سرعان ما أبدعوا في صياغتها؛ في حين هم خارج القاعة مختلفون، ففير العرب يرون أنفسهم سكّان الأرض الأصليين، والعرب غزاة، ويستغربون وجودهم معهم.

أتينا من ثقافة قد ترسّخ العنف فيها نتيجة غزوات دموية، قام بها

المغول والتتار، وقبلهما الكثير من الأقوام، ولو تحدّثنا عن الصراع الفارسي – اليوناني، والفارسي الروماني، والفارسي البيزنطي، الذي سبقَ الإسلام، والذي جرت أحداثه في العراق وبلاد الشام، وما عاناه سكّان المنطقة، لرأينا كيف تختزن ذاكرة سكّان المنطقة من عنف، نوجزها بما جاء في الرواية السريانية "وعامل كسرى الذين وقعوا تحت سيطرته بالقسوة، حتّى إن اللسان ليعجز عن الحديث عن الضيقات والسلب والضرائب والسبايا والقتل التي حدثت في أعقاب انتصار كسرى الفُرس ... بعد أن أدّب قورا، (مدينة) الرّها، ونهبت فضّة الكنيسة القديمة وآنية الكنائس كافّة، والفضّة المحلاة بها، والمذابح، وقبّة المذبح وأعمدته الأربعة والأعمدة الأخرى، وأرسل إلى كسرى أكثر من مئة ألف رطل، أمر كسرى أن يُسبَى الرهاويون إلى فارس بالسرعة الممكنة"، وأهل مدينة الرّها عرب في الغالب الأعمّ.

أما ما يخص ملك الروم هرقل"كتب إلى أنحاء المملكة كافّة يقول: كل مَن لا يقبل مجمع خلقيدونية من السريان الأرثوذكس يُقطع أنفه وآذانه، ويُنهب بيته. وفي هذه الفترة، أصدر أوامر بوجوب اقتبال جميع اليهود الذين في مملكته العماد، فتنصّروا. وهرب قسم منهم من مناطق الروم، ولمّا ضيّق عليهم الخناق، هربوا إلى فارس، في حين أن كثيرين منهم اقتُبلوا المعمودية، وتنصّروا". وأطلق (هرقل) العنان لجيشه، فنهب وسلب القرى والمُدُن، وكأنما هي منطقة الأعداء، فاغتصبوا ونهبوا كل ما وجدوه، ودمّروا تلك المناطق(***).

***) تاريخ ميخائيل الكبير، ج٣ :٣٠٣-٣٠٦، ٣١٦، ٣١٩، نقلًا عن الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية، مؤسسة فلسطين للثقافة- دمشق٢٠١٠، ص ١٦، ١٩، ٢٣، ٢٦، ٢٨

الاستقرار في العاصمة

وَلِنغتُن هي عاصمة زي الجديدة، وتقع في أقصى جنوب الجزيرة الشمالية، شهيرة بميناءها المميّز والجميل، إنه أحد أجمل الموانئ في العالم، لكنها شهيرة، كونها ميناءً للرياح، أحسب أن الرياح في العالم تبتدئ هنا، ومن ثمّ تتوزّع على بقية مناطق العالم، مثلما شروق الشمس يبدأ نهاره في أقصى شرق البلاد، ثمّ رويدًا رويدًا يُعانق العالم، لا يلتفت للغيوم التي تحاول أن تحول بينه وبين عناق الإنسان، والطبيعة، الماء وغناء الطيور، مَن شاهد عناق الشروق للموسيقى والغناء والرقص، أشاهدهُ كلّ صباح، ومهما كانت الغيوم كثيفة والمطر شديدًا، فإنني أستطيع رؤية الشروق وهو يعانق الرياح والعالم.

في الثالث من شهر تموز ١٩٩٧ خرجتُ من مركز اللاجئين، ووصلتُ العاصمة وَلنَغتُن، ومن مطارها إلى مدينة أو بلدة وادي هات، وهي بلدة تبعد حوالي ٢٥ - ٣٠ دقيقة بالقطار، وأسكنوني في نُزُلٍ تابع لمستشفى هات، ويمتاز أن غرفه صغيرة وحمّاماته ومطبخه مشترك، وكان هناك شريك لنا في النُّزُل، يتحدّث بطريقة، فهمتُ منها رغم جهلي آنذاك بالإنجليزية، لكن تقاطيع وجهه المليئة بالتذمّر والانزعاج، تشير إلى عدم ارتياح مبالغ فيه لنا، وربّما كان يرانا أنا وشابّ عراقيّ، توًّا دخل الثامنة عشرة من عمره، مُزعجَين للغاية، كانت هذه أوّل تجربة أواجهها في الأيّام الأولى لخروجي من مركز اللاجئين. سكنتُ ثلاثة أسابيع، ولم أتحمّل الوضع، فأنا لا أفقه الإنجليزية التي كانت سببًا رئيسًا من أسباب إخفاقي الدراسي، وكانت الأقدار لي بالمرصاد حتّى أتعلّمها مُرغمًا، فلا حيلة للمُضطرّ إلا ركوبها، مثلما قالت العرب.

في زيارة للعاصمة وَلِنغتُن، زرتُ الصديق إسماعيل إبراهيم الحلبي الصومالي، ورأيتُ النُّزُل الذي يسكنه، سألتُه إمكانية أن أنتقل للسَّكَن في هذا المكان، تكلّمَ مع الموظّف الذي أكّدَ وجود غرف فارغة، حين عدتُ لبلدة هات، وفي أقرب فرصة، قابلتُ مديرة مكتب اللاجئين، فوافقتْ بعد أن ترجمَ لها صديق سودانيّ رغبتي أن أكون في قلب العاصمة، لأن الفرص هناك متاحة، ولي أصدقاء يساعدونني أكثر، وأنني لستُ سعيدًا في المكان

الذي أسكنه، وهذه المرأة التي عرفتُ اليُتم مبكرًا حين التهمت الحرب العالمية الثانية أباها، تعمل متطوّعة بلا أجر، أوصلتني بسيّارتها الخاصّة الصغيرة إلى النُّزُل الجديد في حي نيوتاون، فلم يكن معي سوى نفسي ولجوئي، وهل للاجئ سوى نفسه ولجوئه، إنه عارٍ إلا من غربته ومنفاه، ومواجهة الحياة بلا لغة ولا مال ولا جاه.

المرأة التي نشترك أنا وهي بأننا تذوّقنا طعم اليُتم، في بداية طفولتنا، عملها التطوّعي ليس حالة نادرة، بل منتشرة كثيرًا في دول اللجوء، وتدلّ على حسٍّ عالٍ بالمسؤولية تجاه الوطن والمجتمع، فالناس تؤمن أن بناء الأوطان لا يمكن أن تقوم به الحكومة وحدها، بل المجتمع ككل، والعمل التطوّعي جزء من هذه المشاركة، وتقنين الماء والكهرباء والاعتناء بالبيئة، ونشر ثقافتها بين الناس لأهمّيّتها للمجتمع، وعدّ تنظيف الأماكن العامّة كالشوارع والأرصفة والأزقّة والساحات والمتنزّهات وإلخ عملية مشتركة بين الحكومة والشعب، وعليه فهُم لا ينتظرون عمّال النظافة، لكي يقوموا بعملهم، وعلى الرغم من حرصهم على عدم التسبّب بانتشار الأوساخ والنفايات والفضلات، تراهم لا يتوانون عن حمل مكانسهم لتنظيف ما هو قريب من بيوتهم، إذا تطلّبَ الأمر، فهم ينطبق عليهم المَثَل القائل: بدلًا من أن تلعن الظلام، أشعل شمعة. فضلًا عن حملات العمل الجماعي التطوّعي في الغابات والمتنزّهات الكبرى والمَحميّات، والانضمام إلى هذه الجمعيات والنوادي التي تهتمّ بالحفاظ على البيئة، والتبرّع لها.

النُّزُل الجديد نظامه لا يختلف عمّا عليه النُّزُل الأوّل في بلدة هات، لكنه ليس تابعًا لمشفىً، وليس عمارة طوابقها متعدّدة، والمساحات الخضر أكبر، ورحلة الحياة أكبر أيضًا، سجّلتُ في دائرة الضمان الاجتماعي، وفي المركز الصحّي، وبدأتُ رحلة البحث عن دورة لتعلّم اللغة الإنجليزية، لغة البلد التي جلبها البريطانيون معهم، وأعطوا أسماء مُدُنهم التي هجروها قبل قرنَين وأكثر للمُدُن الجديدة، هنا معظم المُدُن أسماؤها بريطانية، وبعض هذه المُدُن تمتاز باسمَين معًا، اسم ماوريّ أطلقه قديمًا أولئك الذين نزحوا قبل عشرة قرون أو أقلّ من الشمال، وتعدّدت الروايات فيما يخصّ الشمال، وثقة محافظات أسماؤها ماوريّة، ولكن أسماء مُدُنها بريطانية.

أتذكّر مزة قال أحد الأدباء ممّن لا يتكلّمون سوى العربية وكذا آباؤه وأجداده، بأن اللغة العربية لغة غازية في العراق، هذا الكلام لا يمكن أن يتفوّه فيه ناطق باللغة الإنجليزية ووالده وجدّه ووالد جدّه وجدّ جدّه في نيوزلندا وأستراليا والولايات المتّحدة وكندا وجنوب أفريقية، ولا يخطر على باله، بل ربّما يستهجن كلام العراقي استهجانًا كبيرًا، لو أخبرناه أن أكثر من تسعين بالمائة من الميراث الكتابي العراقي كُتِبَ باللغة العربية، وإن أولى النقوش بخطّ المسند وُجدت في العراق، وتعود إلى القرون التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد، وأن الأبجدية العربية ابتكار عراقي، علاوة على ذلك، فإن الناطق بالإنجليزية، يؤمن أن اللغة التي كُتبت فيها آلاف الكُتُب في بلد ما، قبل ألف سنة وعشرات الآلاف قبل قرون، لا يمكن أن تكون لغة غازية، بل هي أصيلة كالناطقين بها.

أم كلاس

كانت الدورة الأولى لتعلّم الإنجليزية، عن طريق مركز الثقافات المتعدّدة، وهو مركز يضمّ مكاتب عدّة، منها مكتب شؤون اللاجئين والمهاجرين، ومجلس شؤون اللاجئين، والتعليم البيتيّ، ومدرسة (أم كلاس) ومكتب الترجمة للاجئين والمهاجرين، ومكتب اللاجئين الناجين؛ وكل مكتب من هذه المكاتب يعمل لتسهيل حياة اللاجئين، بدءًا من إيجاد سَكَن وأثاث وكفلاء، ومراجعة دوائر الدولة، وتعليم السيّدات في البيت، إن اقتضت الضرورة، وتهيئة المترجمين للعمل مع اللاجئين، ومحاولة حلّ القضايا النفسية الناتجة عن اللجوء، وإيجاد العلاج النفسي الذي يبعد عن اللاجئين شبح الحروب والعنف والدكتاتوريات، وهذه المكاتب تعمل بجدّيّة كبيرة، وأستطيع القول إن العاملين في هذه المكاتب في غالبيّتهم، ممّن يؤمنون بحقّ اللاجئين بحياة كريمة، على الرغم ممّا يتعرّضون له من مضايقات، إن كان من اللاجئين ومزاجيتهم العالية، لأنّ نسبة كبيرة من اللاجئين، وصلوا البلاد، وهم يعتقدون أنها فردوس أرضيّ، أو أرض الأحلام، وليس مثلها مثل البلدان جميعها، تعاني من أزمة بطالة، وقوانين العالم الرأسمالي، فضلًا عن أن عددًا كبيرًا منهم هم لاجئون حقًّا، عرفوا الحروب وويلات الأمن والتهديد والخوف والرعب، فتحوّلت حياتهم إلى كوابيس، ممّا انعكس على سلوكهم، وهم في داخلهم يحملون نقاء وطيبة.

في مدرسة (أم كلاس) كنّا عراقيين في الغالب الأعمّ، ومعظمنا مسيحيون نساطرة سريان، وكنتُ العراقيّ العربيّ المسلم الوحيد بينهم، ذكرتُ هذه الصفات ليس إيمانًا بها، ولكنها حقيقة يتعاملون بها بجدّيّة مبالغ فيها هناك. علمتُ فيما بعد أن ثمّة أيدٍ خفية تريد تفريق العراقيين، وكأن ما شعرتُ به وعانيتُ منه في سنة ١٩٩٧ تحقّق بعد التاسع من شهر نيسان ٢٠٠٣، ففي حين كنتُ أجيب: إني عراقي، مباشرة عندما يتمّ سؤالي عن الهوية الضيّقة، لرفضي لها وإيماني أن هذا لتكريسها، وفعلًا نادرًا ما التقيتُ بسرياني نسطوريّ (دعاة الأثورية - الآشورية) يقدّم نفسه على أنه عراقي، فضلًا عن فخره بعراقيته، وحين يتمّ سؤالنا المعتاد من أين أنت؟ كان الغالبية يجيبون هكذا: أنا آشوري. وأما الكُرديّ، فأكثر ندرة أن تجد

بينهم مَن يُقدّم نفسه على أنه عراقي. وكانت معلّمتنا امرأة تعمل في الكويت، وكان اجتياح النظام السابق للكويت سببًا لحرمانها من العمل، وأظنّها عانت في أثناء ذلك الوقت، فهي تحمل كراهية للعرب، على الرغم من احترافيّتها العالية في عدم إظهار هذه الكراهية، والحقّ أنها نجحت، ولولا علاقتي بسيّدة تعمل معهم في مركز الثقافات المتعدّدة، لما عرفتُ الأمر.

مدرسة (أم كلاس) كانت تعريفًا ليس باللغة الإنجليزية فقط، بل وبالجالية العراقية في العاصمة، فمعظم النساطرة السريان (الآثوريين) هم من ثلاث قرى في أقصى شمال العراق، ومَن يسكن بغداد منهم في الغالب أكثر انفتاحًا، رأيتُ النظرات نفسها التي رأيتُها في مركز اللاجئين في مَنْغَري، أي أن العربي هو صدّام حسين، هو علي حسن المجيد، وبعبارة أخرى، هو قاتل عنصريٌّ بدويٌّ همجيٌّ متخلّف، غازٍ للأرض ومُغتصب للعرض؛ ثمّة فجوة كبيرة خلقتها الأنظمة الدكتاتورية في العراق، وساهمت النخب السياسية فيها، وكان للخطأ الشائع الذي هَيْمَنَ على المثقّفين العراقيين، بتشجيع قراءة الرواية والتباهي بها، سببًا في توجيه طاقات هذه النخب نحو الجهل بتاريخ العراق، فانصهرت هذه العوامل الثلاثة معًا، لتخلق فجوة نكران فئات عراقية لعراقيّتهم، واتّهام الناطقين بالعربية في العراق بأنهم غزاة قَتَلَة. وعليه لم أستغرب حين سمعتُ وأنا في الخرطوم من مُدَرِّسَةٍ أمريكية كانت تعمل في شمال العراق أنها سمعت من أكراد إصرارهم على أن كل عربي هو داعشي، هكذا بإطلاق عجيب.

بعد دورة تعلّم اللغة الإنجليزية في (أم كلاس) دخلتُ دورة أخرى في ما أصبح لاحقًا جامعة مسي في وَلِنغْتُن، كانت تجربة جديدة وتطويرًا لُغتي الإنجليزية الفقيرة، واحتكاكًا أكبر بالتنوّع الذي عليه المجتمع النيوزلندي؛ في أثناء الاستراحة، ترى تبلبل الألسن، وكانت اللغة تفتح مغاليقها بصعوبة، لكن، ليست بالغة، أنا الذي وجدتُ نفسي أقلّية في كل شيء، فبينما في العراق يحسبوني على الأغلبية العربية المسلمة، في وَلِنغْتُن أقلّية، لأني عراقي، ولأني عربي، ولأني مسلم، هويّات لم تخترها، ولم تتبنّها، ولم تدافع عنها أيديولوجيًا؛ بمثل هذا وجدتُ نفسي؛ وكهذا تمّ تصنيفي بلا إرادة مني؛ كنتُ أقدّم نفسي بوصفي عراقيًا، وشركاء الوطن يقدّمون أنفسهم بهويّات ضيّقة، هويّات صَنَعت العراق بلا شك، لكنها ضمن بوتقة العراق، ومجتمعة تحت روحه ووحدة أراضيه وتاريخه وثقافته، ولكنها ضيّقة وعدوانية حين تتخلّى عن عراقيّتها، أو تُرجعها للخلف، وتُقدّم نفسها أوّلًا.

أنا غريب ومَنفيّ دون إرادتي، لم أختر البلاد، أشعر بوحدة قاتلة، عرفتُ أهمّية العائلة في هذه المدينة التي تعوي الرياح بها، كنتُ أسمعها وهي تقول: أيّها الغريب، مضيتَ على ما مضى عليه سلفك العظيم جلجامش، تبحث عن عشبة الخلود التي لن تجد، لا شيء ستجد سوى إصرارك وقوّة إرادتك، لتزيح الأحجار الصغيرة عن طُرُقك، أما الأحجار الكبيرة، فلربّما لن تتمكّن منها أبدًا، وحتى لو تمكّنتَ، فللحظّ لعبته، ربّما تُنسب لغيرك، وربّما يستصغرها آخرون، وهم يضعون مكبرات لرؤية أحجار صغيرة لغيرك، فيُبدون دهشتهم من حجمها الكبير، متجاهلين أنّ العدسات المُكبّرة التي وضعوها منحتها حجمًا يُدهش به كل جاهل وانتهازي. أيّها الغريب لا فراديس في المنفى، والأحلام تخجل من الحالمين، فهم يُصفّقون لما يتحقّق منها، ويُنكرون أحلامهم الكبيرة التي دفنوها بمعول النفي والغربة والاستسلام، لن يبتسم المنفى للواهمين والكسالى، والحياة ليست كأس نبيذ وعناق صبايا وانتظار موعد نزول مساعدات الضمان الاجتماعي في حسابك؛ إنها لهاث، لا ينتهي، وعليك أن ترسم الخطوات القادمة في أثناء

لهاثك، فإن توقّفتَ، فسوف تستدير نحو البداية.

أصبحتُ في الشهور الأولى مصابًا بداء الحنين لكل ما هو عراقي وعربي، أحاول أن أخفّف من وطأة الوحدة والغربة باللقاء مع العراقيين والعرب، تسبّب هذا السلوك في بطء تعلُّمي اللغة الإنجليزية، وتعرُّضي لمواقف مؤلمة، بعضها ما يزال ماثلًا قويًا في الذاكرة، فثمة أناس تُتعبهم الغربة، فتتغيّر سلوكياتهم وأخلاقياتهم، وكأن شعارهم يقول: يا غريب، كنْ لصًا ونصابًا. ففي إحدى المساءات الكئيبة شاءت الأقدار، أن أتعرّف إلى طبيب عراقيّ من مدينة البصرة، وضعتُ فيه ثقتي استنادًا إلى أمور عدّة، تقف شُهرة البصرة وطيبة أهلها وكرمهم في مقدّمتها، واعتقادي أنه كطبيب لا يمكن أن يُضيّع مستقبله بالإساءة إلى الآخرين، لكن هذا ما حدث، وتعرّضتُ لأوّل عملية نصب، وأنا في مَنفاي الجميل، ومن هذا الشخص، سمعتُ لأوّل مرّة اعتزازه بأنه جاء مهاجرًا على النقاط التي وضعته دائرة الهجرة النيوزلندية، وأنه ليس لاجئًا، واصفًا نفسه أعلى مرتبة من اللاجئين، هذا المصطلح الذي سيتكرّر أمامي من قِبَل شخصَين آخرين، شاءت المصادفة أنهما من البصرة أيضًا، وعلى الرغم من أنني تعرّضتُ في عمّان لعملية نصب من قِبَل شخص من البصرة أيضًا، لكني أصرّ على طيبة أهل البصرة بالأعمّ الأغلب، ونقاء سريرتهم وكرمهم، وهو ما لمسته حين تمّت دعوتي إلى البصرة لإحياء جلسة شعرية في اتحاد الأدباء، وكانت أوّل زيارة لي إلى البصرة في عام ٢٠١١، ومن ثمّ في مهرجانَين من مهرجانات المربد ٢٠١٢ و٢٠١٤ ميلادية.

في شهر أيلول ١٩٩٧، جاءني شابّ، تعرّفتُ إليه عبر تردّده إلى نُزُلنا، لزيارة صديق عراقيّ، يسكن معنا، قال لي تعال معي، أنت مَدعوّ إلى عشاء عندي، وكان قبل ذلك حين رأى الكُتُب واهتمامي بالقراءة، أن أخبرني أن زوج شقيقته يقرأ كثيرًا، ويحبّ الكُتُب، لا أدري ما الذي دفعني للصمت، وأنا الذي أحتاج إلى أيّ شخص لديه اهتمامات بالكُتُب والقراءة، ورأيتُ يومًا عند بوابة المركز التسويقي (العالم الجديد) شقيقته وزوجها الذي حدّثني عنه، كانت نظرتي له غريبة، الآن أتذكّرها، وكأنها حدثت قبل قليل، هل كانت النظرة تقول إن هذا الشخص سيكون أحد أعزّ الأصدقاء وأقربهم وأجمل هدايا المنافي لي؟ ذهبتُ مع "مسعود"، ودخلتُ الشقّة، فإذا بالرجل هو شاعر من جيل السبعينيات، اسمه صباح خطّاب، من مدينة تكريت، جدّه الأعلى كان أحد شيوخ قبيلة زبيد، نزح إلى الشمال، وكان هدفه مدينة الموصل، ليستقرّ فيها، لكن استقبال شيوخ تكريت له، وتقديم زوجة

له، جعله يخبر مَن معه من القادمين من الجنوب أنه قرّر الاستقرار في تكريت، ومَن أراد أن يمضي قُدُمًا إلى الموصل، فهو مأذون.

كتبت عن صديقي صباح خطّاب مقالًا طويلًا، ولا أريد أن أكرّر ما ذكرتُه سابقًا، وعليه دوّنتُ ما لم أذكره، إلا ما اضطررتُ إليه؛ كنتُ كلّما أصاب بخيبة أمل من الناس، أجد صباح خطّاب مثالًا، يدفعني للإصرار على المُضيّ في ما أؤمن به، وأتمنّى تحقيقه، وكان عونًا لي في كثيرٍ من الأمور، لكن صباح خطّاب الذي صعد الجبل مقاتلًا في صفوف الأنصار الشيوعيين، سريعًا ما اكتشف اللعبة، وأن الحزب تقوده مجموعة، لا تربطها بخطّ الرعيل المؤسس رابط سوى الانتماء للحزب، الذي صار موقفه يميل لفئة عراقية، على حساب عروبته وتنوّعه، قاتل ثماني سنين عجافًا، وبعدها في طهران، قضى سنتين، ليكمل في باكستان سبعًا عجافًا أخرى، ويصل إلى زي الجديدة أرض الأحلام التي لم يجد فيها عملًا، فاضطرّ بعد أربع سنوات وثلاثة أشهر من وصوله، أي بعد ثلاثة أعوام وشهرين من تعارفنا إلى الانتقال حيث أستراليا، ومنذ الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ٢٠٠٠ ميلادية يعيش في ملبورن، التي يرى طقسها أسوأ من طقس وَلِنغتُن، وأن أهل زي الجديدة أكثر رقّةً في تعاملهم من الأستراليين.

لويس سكوت

منذ وصولي إلى زي الجديدة، وأنا أفكّر في كيفية التعرّف على الوسط الثقافي، كنتُ أخشى أن أصاب بعزلة، ومن ثمّ مغادرة الكتابة، لاسيما وأنني لاحظتُ شحّة الكتابة بعد وصولي، فكان خوفي أن الشحّة ستتفاقم، فتصبح المسافة بين كتابة قصيدة وأخرى قد تمتدّ إلى شهور طويلة، تزيد على السنة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، مجموعة رغبات، منها تعلّم اللغة الإنجليزية بالاختلاط، ومعرفة المشهد الثقافي، وأنّ الانغماس في الوسط ونشاطاته سيكون له تأثير إيجابيّ عليّ، ويفتح لي أفقًا آخر، فالتفاعل هنا سيكون باللغة الإنجليزية، وحوامل هذه الثقافة وأنساقها مختلفة، ممّا يعني تفتّح الوعي والذهن إلى مساحات أخرى من التفكير الإنساني.

حاولتُ كثيرًا مع مركز الثقافات المتعدّدة، وعلى الرغم من مواقفهم النبيلة معي، ودعمهم لي، حتّى إني كنتُ مقرّبًا منهم، وأساعدهم عبر المساهمة تطوّعًا في نشاطاتهم العديدة، لكنهم لم يُبادروا إلى البحث عن جمعية الشعر، أو عن المراكز المهتمّة بالشعر والأدب، والبحث ليس بالأمر الصعب في بلد، خدماته متطوّرة، ففي الكتاب الأصفر، وهو يحوي أرقام وعناوين المؤسّسات والشركات والمصارف والحوانيت ومنظّمات المجتمع المَدَني والدوائر الحكومية، بل وكل شيء؛ ربّما كنتُ خجولًا أكثر ممّا يجب، فلم ألحّ عليهم، وهم المشغولون على الدوام في تلبية رغبات وطلبات واحتياجات اللاجئين، وامتصاص تذمّرهم وأمزجتهم المختلفة، وسوء فَهْم بعض اللاجئين، الذين يعتقدون أن هؤلاء بيدهم كل شيء.

في يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر أيّار، كنتُ أتمشّى وسط العاصمة النيوزلندية وَلِنغتُن مع صديقة برازيلية، وحين اقتربنا من دُكّان "المحلّ الأفريقي كوانزا" قالت: تعال، أعرّفك على الشاعر لويس سكوت، دخلنا دكّانه الذي هو عبارة عن مُتحف، مخصّص للتحفيات الأفريقية، كان بشوشًا للغاية، وهو ما سأعرفه مستقبلًا عنه، فالرجل جدّ بشوش مع الجميع، بعد التعارف، أخبرته الصديقة "أنا"، وهذا هو اسمها، أنني شاعر، ولا أعرف أحدًا في نيوزلندا، فأخبرني أن أنتظره عند باب دكّانه في

السابعة مساء، ومن كرمه ونباهته لضعف لغتي الإنجليزية، مشى معي لخارج المحَل، وقال لي انتظرني هنا، لأنك سوف تجد المحلّ مغلقًا. قائلًا إننا سنذهب إلى مقهى بيت الشجرة، وهو يقع في شارع كوبا، إذ تُقام أمسية شعرية بين ثلاثاء وأخرى. فقلتُ تعني ممشى كوبا، لم يعاندني، ولكنه استدرك كمَن يحاول أن يتذكّر قائلًا: شارع أم ممشى، اعتقد ممشى كوبا.

أتيتُ قبل الموعد قليلًا، بعد مدّة، جاءني وسيّارته على الجانب الآخر، حين عبرنا الشارع، وصرنا بالقرب من سيّارته، ناولني سيجارة، قاربتُ على النهاية، استأذنني لغاية الانتهاء من تفقُّد حاجة في سيّارته، كانت سيجارة ميرجوانا، أو كما تُلفَظ ببعض اللغات واللهجات "مَريوانا" رائحتها مقرفة، وتُتعب معدتي كثيرًا، لم أوضح له ما سبّبت لي، لأمرين: الأوّل خجلي منه في أوّل لقاء بيننا، والثاني أن إنجليزيّتي لم تُساعدني في حينها. كانت تلك أوّل زيارة لي إلى مكان فيه فعالية شعرية، وبداية لتعرّفي على الوسط الثقافي عمومًا، والأدبي خصوصًا. هذه البداية التي أخذت مني ٣٦٣ يومًا بالتمام والكمال، كي ألتقطها بيدي، وأتلَمس طريقة الفعاليات الشعرية في البلد الذي كنتُ أنتظر إتمام عامين ويومين، كي أقدّم أوراقي للحصول على جنسيّتها. فنظام منح الجنسية للاجئين كان في حينها ثلاثة أعوام، وبعد انتهائها يبدأ التقديم، وعادة تستغرق الإجراءات ما بين ثلاثة إلى ستّة أشهر.

في يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر أيّار، أي بعد تعرّفي على الشاعر لويس سكوت بيومين، أُقيمت له أمسية في جمعية الشعر النيوزلندية، وفي وسط القراءة رحّب بي أمام الجميع، وعرّفهم بي، هذه الالتفاتة الكريمة التي تذكّرتُها، وأنا في مدينتي كربلاء بعد غياب دام أكثر من ثماني عشرة سنة، حين حضرتُ فعالية ثقافية في نادي الكتاب، والتي تجري مساء كل أربعاء. وإذا بالشاعر والصحفي صلاح السيلاوي، وكان مُقَدّم تلك الأمسية، يرحّب بي بطريقة باذخة الكرم. ثمّ ذهبنا معًا إلى منطقتي بُرِروَا وهات السفلى، وتجري في أحد نوادي هاتين البلدتين أمسية شعرية شهرية، في الاثنين الأولى وفي الاثنين الأخيرة من كل شهر حسب التوالي (وربّما العكس)، وفيهما ازدادت أواصري بالشعراء، وكانت وسيلة ناجعة لتطوير لغتي الإنجليزية الفقيرة في حينها.

كان لويس سكوت كريمًا معي، وهو رجل يكبرني بعشرين سنة، شارك في حرب فيتنام، حينما كنتُ جنينًا. وحين أنهى خدمته العسكرية تمكّن من الحصول على منحة دراسية، لكن تجربة الحرب جعلته يستاء من سياسة بلاده الظالمة بحقّ الشعوب بحسب تعبيره، وبعد إتمام الدراسة، غادر البلاد، وتنقّل بين بلدان عديدة، قضى مدة في لندن وباريس وأثينا وأستراليا، ليستقرّ به المطاف منذ عام ١٩٧٥ في زي الجديدة، إذ عاش لوقت من الزمن في أكبر مُدنها، وهي أوكلاند، ثم انتقل إلى العيش في العاصمة وَلِنغتُن، وافتتح محلّه المشار إليه أعلاه. شاعر شغوف بالسفر والمطالعة، وينشر عروضًا للكُتُب ومقالات أيضًا.

لا يُدَخّن ولا يعاقر الخمرة

لا يُدَخّن ولا يحتسي الخمر إلا في الحفلات والمناسبات، وقبل أن يقرأ في أمسياته الشعرية. لم أره سكرانًا، بل هو يحتسي نوعًا من الشمبانيا خفيفة، وبكمّيات قليلة لا تزيد على كأسين، وإن طالت السهرة ثلاثة، فالرجل في سلوكه أجبرني على مقارنة مفاهيمنا الخاطئة حول الشاعر، وأنّ الشعر الذي لا يخرج من الحانات، وفي أثناء السُكْر، فليس بشعر مُوحَى، وحصر التجربة لدينا بالحانات وكؤوس الخمرة، فيما لويس سكوت مثله مثل نسبة كبيرة من شعراء وأدباء العالم الذين قابلتُهم في حياتي، وما أكثرهم، لا تُشكّل الخمرة هاجسهم اليومي.

لا أنفي أن للخمرة سِحرها على بعض الشعراء، ولكن، لا يمكن تعميم هذا السِحْر على شعراء العالم جميعهم، حتّى يصبح مَن لا يكتب تحت وطأة الخمر، فلا يعرف الإلهام والإبداع، والشعر موهبة وتجربة وقراءة وتأمّل وإحساس عالٍ بالموجودات، حفرٌ في اللغة والواقع والخيال والذاكرة، وعلى الشاعر أن يجيد مَسك النسيم بيد، وأصوات الطيور والحشرات باليد الأخرى، لإعادة تشكيل الزمن والأمكنة، ونفخ روح جديدة بالكلمات، تأمّل حركة الكون بدءًا من النملة، وليس انتهاء بالمجرّات؛ الجلوس الطويل في الحانات والمقاهي، يُبلّد الشاعر، مثلما تفعل مقاعد الوظيفة الجامدة، وبناء عائلة كبيرة.

حين أدوّن هذه السطور، فإنني أتذكّر يوم أخبرني أن جواز سفره يضطرّ لتجديده قبل نهاية صلاحيته. غبطته كثيرًا حينها، فهو المسافر الذي لولا ما يحصل عليه من مكافآت النشر، وأحيانًا دعوات مهرجانات وصديقات، لديهنّ الرغبة بمرافقته لخبرته الواسعة في السفر فيتحمّلن جزءًا كبيرًا من تكاليف السفر، لما تمكّن من الصمود في دكّانه. وكان كلّما يعود من سفر، يجلب لي أفلامه لتحميضها وطباعتها في الشركة التي أعمل فيها، فأردّد مع نفسي: هذا ما يحتاجه الشاعر، وليس الجلوس في مكان واحد، وإدمان الخمرة والتدخين. لم يخطر ببالي أنني سوف أحقّق حلمي القديم - الجديد المتجدّد، وأعيش حياة حافلة بالتنقّل والترحال والسفر، وأجدّد جواز سفري مرّتين قبل انتهاء الصلاحية. هذه التجربة

الثرية التي يعيشها الشاعر، لا تُعوضها كل حانات الدنيا وخمورها وسجائرها.

أكتب عن لويس سكوت، وهو في محنته، فلقد علمتُ أن دكّانه - المتحف "كوانزا المحلّ الأفريقي" قد أُغلقَ، وأنه تعرّض إلى اتّهام فتاة بأنه أجبرها على ممارسة الجنس في دكّانه، فتمّ سجنه أربع سنوات، وهو الآن يعاني من مرض السرطان الخبيث، هذا المرض الذي كثيرًا ما خشيه، ولا سيما بعد أن أُصيبت أخته الكبرى فيه، وتُوفّيت على أثر ذلك، ولكنه كالموت اللعين أصابه، وكأن لا خلاص من الخبيث! لا أدري هل كان لويس سكوت مكثرًا من الدخان وتناول الخمور لسنوات طويلة؟ لأني وجدتُه يعتني بنفسه حين تعرّفتُ عليه بشكل جيد. لويس سكوت حين شكرتُه أمام عدد كبير من الشعراء والأدباء في مهرجان وَلْنغْتُن الشعري العالمي الأوّل في عام ٢٠٠٣ ميلادية، على حفاوته الكبيرة بي، ردّ بأنني ما فعلتُ ذلك إلا لأني وجدتُك مخلصًا للشعر، وتستحقّ الاهتمام والاحتفاء.

تابعتُ دراستي للغة الإنجليزية، وفي الوقت نفسه، تطورت علاقاتي بالوسط الأدبي، وكان القاموس معي، لا أستغني عنه في كل جملة، ثمّ تطوّرت قليلًا باللغة الإنجليزية، فأصبحتُ أستعين بالقاموس في كل بضع جمل، وبعدها أصبح مرّات عدّة في أثناء الحديث، لينتهي بمرّة واحدة، ومن ثم يصبح محرومًا من التجول معي، ولزم البيت، وصرتُ أقابل الناس، وأحضر الأمسيات والندوات والفعاليات، ولستُ بحاجة إلى قاموس أحمله معي أينما أذهب. وبدأت ذاكرتي تختزن مفردات كثيرة، وتعمل على جعلها جاهزة للاستعمال، أي لم أعد بحاجة إلى التفكير بالعربية، والترجمة منها إلى الإنجليزية، مثلما يفعل كل متعلّم جديد، واحتاج الأمر إلى شهور طويلة، وبدأت بعض المفردات الإنجليزية تنفذ إلى أحلامي، ووجدتُ نفسي أستسيغ بعض الجمل الشعرية، لأنها أصبحت مما اعتادت عليه ذائقتي، وتردّد كثيرًا عند الشعراء، فمواظبتي على حضور الأمسيات الشعرية، تلبية لمقترح الشاعر لويس سكوت في بداية تعرّفي إليه، أدّتْ إلى استساغتي بعض ما أسمع وأقرأ من شِعرٍ، وكم كانت فرحتي كبيرة حين أستحسنُ قصيدة ما، أو مقطعًا كاملًا منها. إن التصالح مع المكان الجديد وثقافته، هو الحلّ الإيجابي، هذا ما توصّلتُ إليه.

وهذا عكس شهوري الأولى في العاصمة وَلنغتُن التي انتقلتُ إليها في الرابع والعشرين من شهر تموز ١٩٩٧ تداخلها الدفاع عن هويتي التي رأيتُها منهوبة مسلوبة، وعلى الرغم من الأخطاء الكثيرة التي ارتكبتُها والعواطف الجيّاشة التي كنتُ أحملها لكل ما هو عراقي وعربي، تُقابل عواطفي، ليس ببرود واضح، ولا مبالاة، بل بنظرات مَلأى بالحقد والكراهية، وروح الانتقام، حتى خلتُ أنّ هؤلاء لو كانت لديهم السلطة، لفعلوا ما فعل بنا الطغاة؛ وإذا كنتُ أستثني جماعات منهم، فإني أجد الواجب الأخلاقي يُحتم عليّ أن ألتمس العذر للجميع، فهؤلاء بسطاء في الغالب الأعمّ، تحرّكهم حركات وأحزاب سياسية، خطابها ازداد عنصرية وشوفينية، كلّما توغّلت الأنظمة في الوقوع في مستنقع الدم والعنف والكراهية.

اللغة وطن

الكاتب الذي أسّس ونشأ عربيًا، ليس من السهل عليه إيجاد أفقه الثقافي خارج نطاق الثقافة العربية، ونادرًا ما وجدنا أدباء متفاعلين ومتصالحين مع الثقافتين، ذلك التصالح الذي جعلهم يعون جوهر الثقافتين، ليؤثر على وعيهم وتفكيرهم وسلوكهم ونتاجهم. ثمة ازدواجية يتعامل بها اللاجئ والمهاجر، ألا وهي أنه عندما يتكلّم باللغة الإنجليزية على سبيل المثال، فهو يحمل زقيًا مثلما أُطلق عليه، أي أنه يُكثر من الإنصات والتواضع، ومفرداتهما (شكرًا، عفوًا، آسف، أعتذر، لو سمحت، ممكن، أكمل لو سمحت، حسنًا، رائع، جيد، آسف على المقاطعة .. وغيرها من الكلمات والجمل) لكنه حين يتكلّم بالعربية، فهو يزيح هذه المفردات من نقاشاته وأحاديثه، وبعضهم أصبح يحمل نظرة استعلائية على أهل بلده ممّن يعيشون في الوطن، ولا ينجون من استعلائه الذين وصلوا بعده إلى بلد اللجوء الذي يعيش فيه هو نفسه.

تحوّلت اللغة العربية، إلى وطن لي، ومَن يدري؟! فلعل دراستي لتاريخها واهتمامي ببداياتها ونقوشها الأولى ومنجزها، جاء من هذا الباب، أي تعويض اللغة العربية بالوطن. وهو ما يجعلني إلى الان أقدّم نفسي بصفتي عراقيًا. أما فيما يخصّ التأثّر بالمجتمع الجديد، فثمة حقيقة تاريخية، ألا وهي أن الأقلّية لا يمكن لها أن تترك مؤثّراتها، بل هي تذوب وتنصهر تمامًا أمام ثقافة الأغلبية، إلا إذا كانت أقلّية كبيرة، أي تُشكّل أكثر من عُشر السكان (١٠٪) أو تتحصّن بموانع جغرافية طبيعية، كالجبال الوعرة والجزر النائية والواحات المنسية، أو أنها ذات ثقافة كتابية عريقة، ووجدت نفسها في ثقافة شفاهية، لأن الشفاهي لا يمكنه أن يؤثّر بالكتابي إلا إذا كان من ضمن لغته، في حين هو شديد وسريع التأثر بالكتابي الذي أنجزته لغة أخرى غير لغته.

من هنا كانت الماوريّة لغة الماوريين سكّان زي الجديدة الأقدم، شفاهية، فتأثّرت بلغة القادم الجديد الكتابية، ولم تؤثّر فيها شيئًا، مثلها مثل لغات السكان الأصليين في أستراليا والولايات المتّحدة الأمريكية وكندا، فهذه اللغات لم تتمكّن من التأثير على اللغة الإنجليزية، لأنها لغات

شفاهية عكس الإنجليزية، والأمر نفسه حدث مع الفرنسية، فهذه أصبحت لغة رسمية لكثير من الشعوب، وتكاد تكون الوحيدة أو الرئيسة في بعض البلدان، لكنها لم تتمكّن من إزاحة اللغة العربية في شمال أفريقية، وفي موقع الأوان، نشر الكاتب والمترجم هاشم صالح، مترجم كُتُب المفكّر محمّد أركون من الفرنسية إلى العربية، أنه شاهد وزير الثقافة الفرنسية، في مقابلة تلفزيونية معه، صرّح أن اللغة الفرنسية انتصرت في كل مكان إلا أمام اللغة العربية لم تنتصر، وبقي عرب البلدان التي احتلّوها يتكلّمون العربية. أظنّ أن الفرنسية لم تفرض نفسها تمامًا على اللغة الفيتنامية، لأن للفيتناميين تاريخًا من الكتابة، لكنهم هجروا الكتابة الصينية، وتبنّوا الأبجدية اللاتينية، وينطبق الأمر على البلدان ذات اللغات الكتابية، وأما انتصار اللغة الإنجليزية في الهند، فلأن معظم لغات الهند شفاهية، وعددها كبير، فسهل اعتبار الإنجليزية لغة رسمية للتفاهم بين الهنود.

سمعتُ قصصًا رواها لي لاجئون، اللاجئون لم يتغيّروا بعد مدّة من الزمن، بل الذي تغيّر هو قصصهم نفسها، والسبب أن معظم هذه القصص تحمل كذبًا كثيرًا، ولأن اللاجئ حديث الوصول إلى نيوزلندا، فقضته ما تزال طرية في ذاكرته وحنجرته على السواء، لكن، بعد مرور مدّة من الزمن، وقد تغلغل الاستقرار والاسترخاء إلى نفسيّته، وشعوره بالأمان آن وصوله إلى بلد التوطين، وحصوله على الجنسية، أو قرب حصوله عليها، فلن يطرده أحد، لاسيما وأن لا وجود للتسجيل ككاميرة الفيديو أو التسجيل الصوتي فقط، فهو بلا وعي منه سمح لتفاصيل كثيرة من قضّته أن تهرب من الذاكرة، وأدّى هذا إلى اضطراره أن يختلق تفاصيل، جعلته ينأى عن جوهر قضّته الأولى، كنتُ أستمع إلى هؤلاء وأنا أردّد: كم في ملفّات المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين من أكاذيبَ وقصصٍ، لا واقع لها، ولا مصداقية، قصصٌ ابتكرها خيال هؤلاء للحصول على اللجوء، وهذا لا يُنكر أنّ بعضهم يستحقّ اللجوء حتّى مع قضّته المملوءة بالكذب والتزوير، لأنه ظنّ أن قول الحقيقة لا يُنقذه من براثن الحروب والحصار والدكتاتورية.

أكاذيب كهذه لا تضرّ أبدًا، فحين تكون بحاجة لجعل قضّتك محكمة ومغرية للمستمع حتّى يصدّقها ويتعاطف معك، وأنت في محنة، فلا بأس، لأن بعض محقّقي اللجوء يعملون في هذا المجال، وهم لا يتعاطفون مع محنة اللاجئين؛ هل جميع المحقّقين وموظّفي الأمم المتّحدة تتفهّم ماذا يعني أن راتب الموظّف الشهريّ في عراق ما قبل التاسع من شهر نيسان ٢٠٠٣ كان لا يكفي لشراء طبقة بيض، تتكوّن من ثلاثين بيضة؟ لكن الأكاذيب التي تلفّقها أمام محقّقي اللجوء، وفيها إساءات إلى الوطن ودين الغالبية والقومية الأولى، ضاربة بعرض الحائط قرونًا من التعايش السّلْمي بيننا، فهذا ما لا يمكن غفرانه والتسامح معه.

سمعتُ قصصًا لا وجود لها مهما شذّبناها، فلم يحدث أن تمّ قَطْع لسان مَن لا يتكلّم بالعربية في العراق، ولم يحدث أن تمّ رمي الحجارة والفضلات البشرية على الذاهبين إلى أماكن العبادة لغير المسلمين، ولم

يتمّ إلغاء التعليم بغير العربية تمامًا، ففي المناطق ذات الغالبية غير العربية، يتمّ التعليم باللغتين، لغة الغالبية في تلك المنطقة جنبًا إلى جنب اللغة العربية. إن الأنظمة الدكتاتورية هاجسها الأوّل هو هاجس أمني، ومن هنا فهي تنطلق لبناء مؤسّسة أمنية قوية، وتخشى التجمّعات الكبيرة، لأن جهدها الأمني مهما كان قويًا سينهار أمام زحف الجماهير، ومن هذه النقطة نستطيع فَهم الخشية التي يُصاب بها النظام الدكتاتوري من التجمّعات، وبلا عاطفة، يمكننا أن نصف مراسيم إحياء ذكرى مقتل الإمام الحسين بن علي، حفيد مؤسّس الإسلام، مع أهل بيته وأصحابه في مجزرة يُطلق عليها «واقعة الطف» كانت تُشكّل قلقًا للأنظمة جميعها، فكيف بنظام صدّام حسين الدكتاتوري؛ على أن لا نبالغ في فَهمها خارج هذا السياق.

تغيير المكان ليس بالأمر الهيّن، أولئك الذين يعتقدون أن الوصول إلى بلدان اللجوء والهجرة، يعني حياة رفاهية، بلا منغّصات، وكأن مساعدات الضمان الاجتماعي هي الغاية القصوى، هم واهمون، لأن اختلاف الجغرافية والطقس يؤدّيان إلى تغيير في الأمزجة، فكيف حين يكون الأمر أكثر من هذا، أي اختلاف في الجغرافية والطقس واللغة والثقافة والنُّظُم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية؛ هذا الاختلاف يؤدّي إلى صدمة حضارية، أو صدمة ثقافية، لو قمنا بترجمتها حرفيًا، فتتغيّر النفوس، وتسوء في حالات كثيرة الأخلاق، ويتراخى السلوك عن ضوابطه التي كانت تلجمها الثقافة القديمة، وهذا يتضح جليًا في كمّيّة الكذب الكبيرة التي تُغلّف حيوات اللاجئين، والتي أشهرها، ادّعاؤهم المرض، وهم ليسوا بمرضى، ولاسيما مرض المعدة والمرض النفسي، مرضان مهما حاول الأطبّاء الكشف عنهما، فلن يفلحوا، هذا ما أخبرني به طبيب عراقي، استخدم خبرته، ليحصل على معونات إضافية.

الانفصال، بعد ادّعاء المرض والتمارض، يذهب الزوج وزوجته إلى دائرة الضمان الاجتماعي، ليُعلنا انفصالهما، هو يجلب عنوانًا جديدًا، وهي تبقى مع الأطفال في البيت نفسه، وبهذا يتمّ حجب مبلغ بسيط من معونتها الاجتماعية، ومنح الزوج معونة عازب، وبهذا يزداد دخل العائلة. العمل في المطاعم والتنظيف والمزارع نقدًا، أو ما يُطلق عليه في زي الجديدة «تحت الطاولة»، وفي أوربا الغربية «العمل بالأسوَد»، تنشئة الأطفال على المبالغة في الحفاظ على الهوية الضيّقة، القومية لغير العرب، والمذهبية للمسلمين العرب، وهذا يؤدّي إلى جعل الأطفال يعيشون في صراع بين المجتمع الذي وُلدوا أو نشؤوا فيه وبين ثقافة الأهل التي يعتورها التطرّف والتعصّب والكراهية للآخر، وعادة يكون الآخر أهل البلد المُضيف، والقومية الكبرى أو هوية الفئة الحاكمة في البلد الأمّ؛ وساعدت أدبيات الأحزاب العراقية على سبيل المثال في جعل اللاجئين الذين ارتدّوا إلى هوياتهم الضيقة، ضدّ الهوية الكبرى، وهو العراق، أن يحفظوا مقولات تلك الأدبيات التي عادة ما نجد أن القائمين عليها يمثّلون عصارة التعصّب

والتطرّف والكراهية، فأصبحت هذه المقولات، وهي في الغالب الأعمّ سرديات، مَبنية على الأوهام، تنسب كل خير وجمال للنفس، وكل شرّ وقبح للآخر المختلف في الوطن الأمّ، والذي عادة ما يكون كما أسلفتُ في أعلاه، والقومية الكبرى أو هوية الفئة الحاكمة في البلد الأمّ.

بدأتُ العمل في شركة للتصوير كمتدرّب ضمن منهاج دورة اللغة الإنجليزية، وبعد انقضاء الأسبوعين، سألتهم إمكانية الاستمرار بالعمل التطوّعي، بحسب تعليمات المعلّمة في تلك الدورة، واستمرّ العمل معهم لمدّة سنة ونصف، كنتُ أرى ترك موظّفي طباعة الأفلام للعمل، وتوظيف موظّفين جدد، وأنا لا أحد يوظّفني، والمفروض لي الأولوية، وكلّما مرّت الأيّام، تزدادُ أوّليّتي، ولكن، لا تحسُن في الأمر، حتّى أخبرتني صديقة أنها قرأت عن حاجة أحد فروع الشركة نفسها في حيّ جونسون فيل، إلى موظّف طباعة أفلام (طبّاع)، فقدّمتُ، وقبلوني بساعات قليلة، وبراتب هو الحدّ الأدنى، لكني كنتُ أشعر بالسعادة، لأني، وبعد مرور سنة ونصف، بدأتُ أعمل، ولم أعد عالة على دافعي الضرائب، بل أصبحتُ أحد دافعي الضرائب، وهذا يعني أنني مواطن جيد، بالنسبة لي على الأقلّ، على الرغم من أن هذا بالنسبة للحكومة ولكثيرين يؤمنون على أن الإنسان يجب أن يعمل، ويكون عضوًا فاعلًا في المجتمع.

كنتُ أدفع الحدّ الأدنى من الضرائب، وهي ١٩.٥٪ حسبما علمتُ. والنظام الضرائبي أنجح الأنظمة، لأنه يمنح إحساسًا بالانتماء للبلد والمجتمع، والمساهمة في البناء، تشعر كل شارع وسكّة حديد وحديقة ومتنزّه ومتحف ورصيف ومكتبة ...إلخ، أنتَ مساهم في بنائها، أو استمرار خدماتها. دافعو الضرائب يتحمّلون وزر العاطلين عن العمل، لأن المساعدات المالية التي يحصلون عليها تأتي كلّها أو معظمها من دافعي الضرائب، وكلّما زاد الراتب أو المردود المالي، زادت الضرائب، ولأنني سمعتُ شائعة في العراق تزعم باطلًا أن المساعدات التي يحصل عليها العراقيون تُستقطَع من النفط العراقي، وهذا كذب وإفك، فلا علاقة بالمطلق للحكومة العراقية ماضيًا وحاضرًا بأية مساعدة، يحصل عليها اللاجئون العراقيّون في بلدان اللجوء، بل من الناحية الشرعية الإسلامية حسب مفهوم الشريعة التي بنى سرديّتها الفقهاء المسلمون، فإن غالبية مصادر هذه المساعدات حرام، لا تجوز شرعًا، لأن أكبر الضرائب التي تتحصّل على حكومات دول اللجوء هي مصانع الخمور ومحلات بيعه

والحانات والمراقص والنوادي الليلية وبيوت الدعارة وصالات التعرية، وصالات القمار، ودكاكين القمار «مكائن القمار، أو البوكر مشين» والمطاعم، وهي جميعها تبيع الخمور، وتبيع لحم الخنزير، واستهلاك لحم الخنزير كثيرًا في هذه البلدان، مما يعني أموالًا أكثر، وفوائد المصارف، والمضاربات المالية، وهذه وغيرها مما خَفيَ عنّي، تُعدّ مصادر مهمّة ورئيسة في دفع المساعدات المالية للاجئين المسلمين، فأين الحلال فيها استنادًا إلى المدوّنة الشرعية التي يؤمن بها الفقهاء المسلمون جميعهم؟.

سمعتُ أمّي مرّةً تقول: إن رزقي محدود. هذه الجملة بقيت عالقة في ذهني، فما إن أحصل على مال إلا ويتبخّر بطُرُق شتّى، يأتي صديق محتاج، فأتبرّع به له، أو تحدث حادثة ما، أو يذهب لسداد احتياجات ضرورية، أغلب الأماكن التي عملتُ فيها تعرّضتُ فيها للاستغلال، هل هي لعنة الشُعر؟ لا أدري، فلربّما أنا السبب، لأن الحديث عن المال يُحرجني، ويُزعجني، حتّى أولئك الذين استدانوا مبالغ مالية منّي، لم أراجعهم فيها، ومعظمهم لم يُعيدوا المال، أماكن العمل كانت أكثر وطأة، لكن العمل مع هذه الشركة الكبيرة، كان علامة فارقة في حياتي، فبسببهم خسرتُ كثيرًا، عملتُ سنةً ونصفها لديهم مجانًا، ما بين شهر تشرين الثاني ١٩٩٨ و شهر أيّار ٢٠٠٠، وحين بدأتُ العمل كان راتبي هو الحدّ الأدنى تقريبًا، بحسب لوائح العمل في زي الجديدة، لاسيما وأنّ حِزفتي تتطلّب أكثر ممّا حدّدوه لي بما لا يقلّ عن دولارين في الساعة كحَدٍّ أدنى، على الرغم من أنّ آخرين كانوا يقبضون في حينها ما بين ثلاثة إلى ستّة دولارات في الساعة أعلى من أجري الذي كنتُ أتقاضاه.

درستُ سنة كاملة في عام ٢٠٠١ في جامعة مَسي (ماسي) لتطوير لغتي الإنجليزية، وبعد الانتهاء، ذهبت إلى دائرة الضمان الاجتماعي والعمل، لأخبرهم عن وضعي الجديد، فلم أعد طالبًا، والشركة قرّرت أن تُعطيني ساعات كاملة (٤٠) ساعة أسبوعيًا، سألني الموظّف: كم راتبك في الساعة؟ حين أجبتُه بأنه تسعة دولارات، وكان هذا في شهر كانون الثاني ٢٠٠٢، أبدى استغرابه، ونَسيَ أنه موظّف، وواجبه أن يحثّ الناس على العمل، مهما كان الراتب ضئيلًا، فقال لي: هذا راتب ضئيل. وكأننا تبادلنا الأدوار، إذ أجبتُه: أليس أفضل من البطالة والاعتماد على المساعدات التي تمنحونها للعاطلين عن العمل؟ تذكّر مركزه الوظيفي، فاستعاد دوره، وأثنى كثيرًا عليّ. ما أجبتُ به موظّف دائرة الضمان الاجتماعي والعمل، هو إيماني بأن المرء حتّى لو كان شاعرًا أو كاتبًا، لاسيما حين يكون في مقتبل العمر، أي في عشرينياته أو ثلاثينياته، عليه أن يعمل، لأن اكتساب الخبرات من المجتمع أهمّ بكثير من البطالة والجلوس في البيت، وانتظار مساعدات

الضمان الاجتماعي، أو على الأقلّ، تمنح الكتابة حرارة ونبض إيقاع المجتمع، وفي الوقت نفسه، يكون فاعلًا في المجتمع الذي يعيش فيه، وأشعر أن عملي في السوق على امتداد أكثر من ثلاثين سنة، وفي حِرَفٍ متنوّعة، منحني خبرة كبيرة، صداها في قصائدي وكتاباتي، وفي إحساسي العالي بمعاناة الطبقة العاملة، واحترامي الكبير لمنظّفي الطُرُقات، إلى الحدّ الذي أراهم لا يقلّون أهمّيّة عن الأطبّاء، فالنظافة من طُرُق العلاج الضرورية، فضلًا عن جمالية الطُرُقات، وهي نظيفة.

حين وصلتُ إلى زي الجديدة، كنتُ أحسب أنني لن أتعرّض للاستغلال في العمل مرّة أخرى، والحقّ يقال إن هذه البلاد مثلما تفخر بالعديد من الإنجازات الحضارية - المَدَنية، تقف ثقافة البيئة في أوّل السُلَّمِ والحُرّيّات الشخصية وحقوق الإنسان ومناهضة العنصرية، ففيها يكاد يكون استغلال الأجانب واللاجئين ممّن يملكون إقامات دائمية، أو حصلوا على الجنسية، أقلّ قياسًا ببلدان أخرى، تُعدّ متطوّرة؛ لكن سوء الحظّ، أو سوء التخطيط، جعلني أتعرض لِغُبنٍ في العمل، وكأن الأمور لا تأتي بما يتمنّاها الإنسان، والنتيجة التي خرجتُ بها أنني شخص "أدركتني حرفة الأدب" أي أنني خُلقت لأعيش للشعر والكتابة، ممّا جعلني لا أجيد التركيز في أمور كثيرة أخرى في حياتي، ولاسيما المالية، وإلّا لماذا لم أذهب إلى محام، أو أصبح عضوًا في نقابة العمّال؟! أليست هذه النقابة، وما إن انضممتُ إليها، وكتبوا إلى الشركة حتّى جاءني المدير يسألني أيّ لون أحبّذه للكرسي الجديد، وأنا الذي لطالما ألححتُ عليهم بتغيير الكرسي، والذي بسببه تعرّضتُ لآلام في الظهر، لا يمكنني أن أثبت ما تعرّضتُ له، لأن العالم الرأسمالي، وتغوّل الشركات، تجعلهم يملكون حججًا بفضل محامين، لا يراعون ذممهم وضمائرهم في العمل؟!

كانت تجربتي مع هذه الشركة تجربة قاسية ومريرة، بقيت تسبّب لي وجعًا وإرهاقًا نفسيًا لسنوات، أكتب الآن وفي داخلي يتصارع الفرح والألم، الفرح لأنني بعد سنوات تمكّنتُ من تجاوز تلك الشهور الطويلة القاسية في حياتي، فقد شعرتُ حقًّا بالتفرقة العنصرية، ربّما هو شعوري أنا، ولا وجود له على أرض الواقع، لكن، أن تحصل طالبة جامعية لا تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها، على أجر أعلى من أجري، وأنا مديرها، فذلك ما لا يصدّقه أحد ممّن أخبرتُهم، فضلًا عن جميع الشباب الذي هم في العشرينيات، ويعملون معنا، اكتشفتُ أن أجرهم أعلى من أجري، إن كان تعيينهم لم تمضِ عليه أسابيع قليلة أو شهورٌ طويلة أو سنوات عدّة، أنا

اللاجئ الذي في إنجليزيتي لكنة عربية عراقية واضحة، وبخبرة طويلة، في التصوير الأسود والأبيض والملوّن، وطباعة الأفلام الأسود والأبيض والملوّنة، تُضاهي خبرات عمل بضعة عشر موظّفًا معًا، لكن اللكنة عيب، واللكنة تسرق سنوات طويلة منك، وترميها في سلّة المهملات.

عندما تذهب إلى محكمة أو تقف أمام شرطيّ، أو مديرك في العمل، فتذكّر أنك، أيّها اللاجئ، بلا وطن ليحميك، وإن لكنتك وباء عليك، سيكون غريمك الذي لا لكنة لديه، يتحدّث الإنجليزية كلغةِ أمٍّ، ونشأ في مدارسهم، صادقًا في كل ما سيقوله، وعليك أن تُثبت صدقك وأكاذيبه بصعوبة، تصل حدّ المستحيل أحيانًا، كم من مرّة افتروا عليّ، أو أساؤوا لي، وكنتُ أستغرب كيف يحدّثني المدير ونحن نعمل معًا منذ سنوات، في حين الموظّف الذي افترى عليّ لم تمض عليه أسابيع عدّة، وهو أحدث مشاكل، ويتصرف بغرور حتّى مع مديري. عندما نترك أوطاننا علينا أن نعي أن الفردوس كذبة اختلقناها، ولو أنّ كل لاجئ تحدّث بالحقيقة عمّا عاناه، وما ارتكبه من أخطاء وحماقات وأكاذيب وسرقات لحقوق الدولة المُضَيّفة، لكانت حقيقة اللجوء أكثر واقعية، بلا رتوش الخيال والأوهام وقول نصف الحقيقة.

عندما كنتُ أعمل في هذه الشركة، ذهبت فتاة إلى مركز الثقافات المتعدّدة تسأل عنّي، تريد أن تكتب بَحثَ تخرّجها للحصول على الإجازة (البكالوريوس) في الصحافة، قابلتني، وأجرتْ حوارًا معي، وسألت مَن يعرفني، وقرأتْ قصائدي المترجمة للإنجليزية، وكتبت بحث التخرّج، وبعد النجاح، أرسلته إلى صحيفة "ذي دومِنْيَن بوست"، واتّصلت بي والسعادة تملأ صوتها، لأن المحرّر المسؤول أعجبه المقال جدًّا، وسأل عنّي، ليرسل لي مصوّرًا يصوّرني، وفعلًا جاءني المصوّر، والتقط لي صورًا عند مرايا مكتبة وَلْنغتن المركزية، و قد نُشر في عدد يومَي السبت والأحد، الذي يصدر صباح يوم السبت، وكان مهرجان وَلْنغتن الشعري العالمي الأوّل منعقدًا، أي كان الاختيار موفّقًا للغاية، هذه الصحفية وجدتْ عملًا في جريدة الولنغتوني (ذي وَلنْغتِنيَن) وفي حفلة الوداع للانتقال إلى هيروشيما (اليابان)، أخبرتُها بقصّتي، فقالت إنها ستكتب مقالًا، وكأيّ صحفية محترفة، سألت عدّة أطراف، الغريب أن محامي نقابة العمّال الذي من المفروض أنه يؤمن بقضيّتي، أخبرها أنه يرى أنني كنتُ أنوي الحصول على مالٍ؛ هكذا يُفكّر بعض الغربيين، لا يمكنهم أن يثقوا بمظلومية لاجئ، إلا في حالات معيّنة، فعنده لا يمكن لنيوزلنديين بيض لا لكنة في

إنجليزيتهم أن يَظلموا.

تصرُّف المحامي، ليس مستغربًا، ولو قرأ كلامي سيعتقد أنني ظلمتُه، وأوَّلتُ ما أوَّلتُ، لأن رأيه لا يتفق معي. كثير من الناس ما تزال العنصرية متغلغة فيهم، ولو بدرجات متفاوتة وهم يجهلونها، مَن يقول: إني أكره القومية الفلانية، مهما كانت الأسباب، فهو عنصري، ومَن يرمي شعبًا بكلام غير لائق، فهو عنصري، نحن نتربّى على قيَم، بعضها ليست صحيحة. زي الجديدة التي تُعدّ من أقلّ بلدان اللجوء والهجرة عنصرية وظلمًا للاجئين، حدث معي ما أراه من وجهة نظري أنه كان استغلالًا وظلمًا في العمل، واحترامي للبلد الذي منحني الأمان والجنسية، يُحتّمُ عليّ أن أقول وأنا صادق، إن حالتي في العمل غير منتشرة، ونستطيع عَدّها من الحالات القليلة، فهي ليست قاعدة. إن قول المحامي بأني في دعوتي ضدّ الشركة ولجوئي إلى نقابة العمّال، كان طلبًا للمال، وليس حقيقة أنني مظلوم، تُنقضه ثلاث حالات، الأولى عدم حصولي على زيادة سنوية، ولو بحدّها الأدنى، وأنا الذي راتبي يكاد يلامس الحدّ الأدنى من الأجور المقرّرة من قِبَل الحكومة. الثانية: أن الموظّفة التي أنا مديرها، وهي طالبة جامعية أجرها أعلى من أجري، وهي حالة نادرة جدًا جدًا، إن لم تكن فريدة من نوعها. ثالثًا: اتّصلتُ بي موظّفة الطباعة (الطبّاعة) في فرع مدينة كرايس تشيرتش، وكانت متذمّرة، لأن راتبها كان ١٤ دولارًا في الساعة منذ أكثر من ثلاث سنوات، أي حين كان أجري تسعة دولارات في الساعة، ثمّ أحد عشر دولارًا.

كيف لمحامٍ يفكّر بهذه الطريقة، ونتوقّع منه أن يدافع بجدّيّة عن موكّله؟ حتمًا لن تكون هناك جدّيّة وإصرار، وأنا على ثقة أنه لا يتذكّر قولي: إنني على استعداد للتنازل عن حقوقي المالية أو التبرّع بها، لو كَفّتْ الشركة عن عدم دفع زيادات سنوية لموظّفيها لاسيما ذوي الأجر المنخفض. تجربة العمل هذه التي تركت شرخًا كبيرًا في حياتي، وجعلت نظرتي للجوء والهجرة فيها الكثير من الحذر والواقعية، كان موقف محامي نقابة العمّال، للصحفية أكثر إيلامًا. تجربة، لن تُمحى من ذاكرتي جراحها والندوب التي خلّفتها في مسيرة المنفى الطويلة؛ فقد تفهّمت الاستغلال الذي تعرّضتُ له في الأردن، لأني كنتُ أعمل بلا إقامة ولا تصريح عمل، لكن ما حدث لي في بلد هو أحد أرقى البلدان في تعامله الإنساني، ونبذه للتمييز العنصري والتفرقة والاستغلال، هنا المأساة من وجهة نظري. تعرّضك للظلم والاستغلال، في بلد لا تحميك قوانينه، أو

لأنك خرقتَ قوانينه، ليس ظلمًا موجعًا وفادحًا بقدر تعرّضك له وأنت في بلدٍ وضعك القانوني فيه لا يختلف عن أيّ مواطن، بما فيه الموظّف الأكثر قوّة فيه، مثلما هو منصب رئيس الوزراء في زي الجديدة؛ لكنها اللكنة اللعينة، أن لا تتكلّم لغة البلد بطلاقة مَن نشأ وترعرع ودرس مراحل الدراسة الأولى فيه، يعني تعرّضك لعدم الثقة. عدم الثقة في صدقك، مهاراتك وخبراتك في العمل، في دفاعك عن حقّك.

محاولة للتّوغّل عميقًا

عندما وصلتُ زي الجديدة، لاحظتُ أن أسيجة البيوت واطئة، وبعض البيوت لا أسيجة لها، وأن ثمّة مساحة خضراء واضحة، ممّا جعلني أن أسأل العراقي الذي كان يُلقي علينا دروسًا عن الحياة في هذا البلد وحقوقنا وواجباتنا، فأخبرني أنها أوامر حكومية، لأن المساحة الخضراء لا بدّ منها، وأن ثمّة نسبة وتناسب في الأمر، لا أدري مدى دقّة هذا الأمر، لكنني علمتُ أن البيوت بأسيجة واطئة أو بلا أسيجة، هو للكلفة المالية التي يتطلّبها بناء السياج، وبما أن البلاد آمنة، فما الضير بترك البيوت بلا أسيجة، وما خشيَ منهم من مرور الكلاب على زرعه، فليجعله واطئًا، ولا يعني هذا أن ثمّة بيوت بلا أسيجة عالية.

نحن أمام ثقافتين مختلفتين، ثقافتي التي تربّيتُ عليها في العراق، والتي ترى في السياج العالي سِترًا لنساء البيت، وحفظًا وأمانًا من العيون التي تُدمن التلصّص أو تلك التي تحثُّ أصحابها على السرقة؛ في زي الجديدة، مثلما هو في كل مجتمع غَـزبي، مفاهيم الشرف والسّتر والعفّة والأخلاق تنطلق من عوامل اجتماعية مختلفة عمّا عليه الحال في بلدان الشرق عامّة والعالم العربي خاصّة، ولست منحازًا لأيّ منهما على حساب الأخرى، فلكل ثقافة أنساقها وظروفها التاريخية والاجتماعية، وربّما تؤدّي الجغرافية والسياسة في تشكّلها أيضًا. من هذه النقطة بدأت محاولات لفكّ رموز المجتمع الجديد، للتعرّف عليه بغية الاندماج فيه، وتحقيق النجاح، لأن النجاح يعني امتنانًا لهذا البلد الذي من مجموع الناجحين فيه حقّقَ نجاحه، وإذا كنتُ أقارن في بدايات وجودي في أقصى جنوب الجنوب، مُعليًا من شأن ثقافتي الأمّ، فإنما لجهلٍ بي أوّلًا، وأشعر بالغبطة أنني تجاوزتُه، ولشعوري بالوحدة والعزلة والغربة في بلد أجهل لغته وثقافته، وبين العراق بحار ومحيطات ومفاوز وصحارى.

الخطأ والصحيح، الجميل والقبيح، الناجح والفاشل، جميع هذه الثنائيات لا مكان لها في العالم المَبني على نظرة إنسانية، ترى البشرَ أخوة ومتساوين، مهما اختلفوا، بل إن هذا الاختلاف والتنوّع دليل ثراء، يجب أن نحافظ عليه، وأن الجريمة الكبرى التي يشترك فيها المتطرّفون، دعاة

الحقّ الإلهي والرسالة السماوية، أو دعاة التمدّن والحضارة التي ترى نهاية التاريخ، وتُطبّل لصدام الحضارات، أقول إن هذه الجريمة في عدم النظر للثقافات البعيدة والمختلفة والصغيرة بعدد المنتمين لها، بأنها ثقافات تقف على قَدَم وساق، وبندّيةٍ مع جميع الثقافات، مهما كبرتْ، وعظمتْ، وامتلكتْ من قوّة عسكرية، وتقنيات وسطوة إعلامية جبّارة، واقتصاديات عملاقة، لا يمكن الانتقاص من أي ثقافة، لكن، يجب تعرية العنصرية والاستبداد والتزوير والكذب والافتراء والخديعة حتّى لو صدرت من أفراد ينتمون إلى أقلّيّات صغيرة مظلومة، وبالقوّة نفسها التي يتمّ فيها تعرية السوء الذي يصدر من أفراد ينتمون إلى قوميات كبرى، أو بلدان في قمّة سُلّم التمدّن والتطوّر. الإيمان بالمساواة بين البشر يجب أن يتحقّق في كل شيء، الاحتفاء بالتنوّع والخصوصية والاختلاف، وفضح وتعرية الكراهية والظلم والإساءة.

انهماكي في العمل وبالفعاليات الثقافية والنشاطات التي تقيمها البلدية والجاليات، وتعرّفي على عدد من شعراء العاصمة وأدبائها وضواحيها، جعلني أكثر معرفة بالمجتمع الجديد، لا شكّ أن اللغة مفتاح مهمّ، وانغماسي بالنشاطات، وحصولي على جوائز بسيطة في المسابقات التي تجري في الأماسي الشعرية، والمهرجانات، نتجتْ عنه صداقات جميلة مع عدد كبير من الأدباء والفنّانين والمثقّفين عمومًا، ومنهم الشاعر والناشر مارك بيري، الذي أصبحَ مُحَرّر قصائدي باللغة الإنجليزية، وناشرها، وأدام الشعر علاقتنا، فكنّا صديقين رائعين، وكان وما يزال كريمًا معي بتبرّعه بتحرير ونشر قصائدي، وبفضله، نشرتْ مجموعاتي الشعرية الثلاث بالإنجليزية، وتُعدّ مجموعتي الأولى بالإنجليزية (هنا وهناك) أوّل كتاب يُترجم من العربية إلى الإنجليزية، ويُنشر في آوتآرِوَا، وقد لا أجانب الصواب لو قلتُ إن مجموعاتي الشعرية الثلاث، هي أوّل ثلاثة كُتُب تُرجمت من العربية إلى الإنجليزية، ونُشرت في منفاي الجميل، مثلما يحلو لي تسمية هذه البلاد التي منحتني جنسيّتها، وفي خضمّ الحديث ضدّ اللاجئين نتيجة لتفجيرات الحادي عشر من شهر أيلول ٢٠٠١ وتفجيرات لندن، شهر تموز ٢٠٠٥ ولا يُخفى أن زي الجديدة ترتبط بروابط قوية مع بريطانيا، أقيم في أوكلاند مؤتمر يبحث مسألة الهجرة واللجوء، فكانت كلمة وزير الهجرة تثني على اللاجئين، واستشهد بي كأنموذج للاجئ الذي يُثري البلاد والأمّة، بحسب تعبيره وقرأ شيئًا من قصيدتي (هنا حماقات هناك .. هناك تبختر هنا)، والتي مطلعها: آوتآرِوَا .. آوتآرِوَا .. منفاي الجميل.

كنتُ أطوّر لغتي الإنجليزية، والتي لا يمكن التفاعل مع المجتمع النيوزلندي وإيجاد عمل، إلا بتعلُّمها، وفي الوقت نفسه، أقرأ تاريخ العراق، وربّ ضارة نافعة، فالتشرذم العراقي إلى هويات ضيّقة، وانغلاقهم نحو هوياتهم هذه، نتج عنه وجود عشرات الكُتُب التي تتناول تاريخ هذه الهويات الضيّقة، وكانت فرصة ثمينة لي، أكسبتني معرفة تاريخية بهذه الأقلّيات العراقية، ومعرفة اجتماعية عبر معايشتي لهم على امتداد سنوات وجودي الثمانية، بلا رتوش عادة ما تضعه الأقلّيات، وهي في الوطن الأمّ، لتعطي صورة صافية نقية عنها، مَلأى بالطيبة والمحبّة والإيجابيات عمومًا، فكانوا أمامي بلا مساحيق تجميلية كاذبة.

في المنافي تتصرّف الأقلّيات بلا خوف من القومية الكبيرة، أو لنقل من الثقافة الكبيرة، فبعض الأقلّيات تنتمي إلى القومية نفسها، ولكنها تختلف عنها بالدين أو المذهب، وحين يُزاح الخوف بعيدًا، بغضّ النظر عن هل هذا الخوف نتيجة لبطش الأغلبية أم ستار صنعته الأقلّيات، واحتمت به. ففي بلدان اللجوء والهجرة حُرّيّة تامة، وحماية تامّة، فعلام التقيّة إذن؟!. عندها ستتّضح حقيقة الأقلّيات، بأنها ابنة بارّة لذات الأنساق الثقافية والحوامل الاجتماعية، ذات الثقافة التي عليها الغالبية، في المنفى تظهر الطائفية والعنصرية، والتطرّف وإظهار الأغلبية على أنها قاتلة دموية متطرّفة ظالمة، تساعدهم في ذلك ليست الحُرّيّة والأمان فقط، وإنما حاجتهم الماسّة لتدمير العدوّ، فالأغلبية عدوّ، في مخيال الأقلّيات، لاسيما أولئك الذين قدموا للحصول على اللجوء والهجرة، وملؤوا ملفّاتهم لدائرة الهجرة واللاجئين، عن بطش ودموية الأغلبية، فتنمو في مخيّلتهم هذه الصورة التي رسموها في تلك الملفّات، وهو ما نجده واضحًا في تطرّف غالبية مثقّفي الأقلّيات، خارج العراق، مقارنة بمثقّفيهم في العراق. وهذا الكلام ليس تعميمًا مطلقًا.

أصبحت الهوية همًا من همومي، وكنتُ حين أقرأ تاريخ التنوّع العراقي، أشعر بفداحة الأمور أكثر، وبحقيقة نظام الاستبداد الدكتاتوري المبني على ثقافة، هي خليط من العشائرية والإعجاب المفرط بالقوة متمثلة بطغاة العالم، ومنهم الطغاة في التاريخ العربي كالحجّاج بن يوسف الثقفي. وساهمت أسئلتي ونقاشاتي مع عدد كبير من المثقّفين، ومن أبناء الجاليات في وَلنغتُن، وهي مدينة تعيش فيها عشرات القوميات والأعراق والديانات والمذاهب، ومن بيئات ثقافية وجغرافية مختلفة، على تفكيك الكثير من الخطابات الدينية والمذهبية والقومية والأيديولوجية في العراق؛ وهذا أدّى بدوره إلى البحث عن حلول ناجعة، لا تسمح بظهور طغاة وانتهازيين ومتملّقين، يرسمون صورًا نقية وثورية لهم، لمجرّد هروبهم أو محاربتهم لنظام الحكم في البلاد.

أدّت قراءاتي ونقاشاتي وتأمّلي في التاريخ والتنوّع إلى فَهم أدقّ لمصطلحات عديدة، مثل القومية والإثنية، الحضارة والمَدَنية، وغيرها من المصطلحات والجمل والمواقف، وطرأ على تفكيري تغيير كبير، فلم يعد كل مَن وقف بوجه السلطة الغاشمة في بلدي مناضلًا ومبدئيًا وقريبًا مني إلا بشروط، لأن كثيرًا من هؤلاء لم يُناضلوا من أجل عراق متمدّن حداثوي، يُعزّز التحارب البشرية الناضجة في الحكم والإدارة وحقوق الإنسان والدولة المَدَنية، ليخلق توازنًا بين الأصالة العراقية وما توصّل إليه المجتمع العالمي من تقدّم، لخلق مجتمع خَلّاق ومنتج، وليس مجتمعًا ريعيًا. بل كان بينهم والنظام السابق، خلافات عقائدية، دينية أو مذهبية أو قومية أو أيديولوجية، ويتضح هذا جليًا عبر مسيرة هؤلاء، فقيادات الأحزاب والحركات والمنظّمات، لم تتغير، ولم يعرفوا التداول السِلْمي في السلطة، وخلقوا أفواجًا من الكُتّاب والباحثين والأدباء المؤيّدين لهم ولطروحاتهم، على حساب وحدة التراب العراقي وتأسيس وتأصيل الدولة المَدَنيّة.

إذا كانت الأحزاب قد افتضح أمرها في العراق بعد التاسع من شهر نيسان ٢٠٠٣، فإن سوء فَهم وتفسير المصطلحات والمفاهيم، قاد إلى عدم

دراسة الانتهازية، بل الخيانة التي مارسها وما يزال عدد كبير من المثقفين العراقيين في الخارج، أو ممّن عارضوا نظام صدام حسين، وكأن بلدان اللجوء والهجرة التي تُعدّ أكثر الدول تطوّرًا وتطبيقًا لمفاهيم التمدّن والحداثة والتداول السِلْمي للسلطة والاعتزاز بالتنوّع مع الاحترام الكبير من قِبَل الجميع للثقافة الأمّ (أفضل الأمّ على الكبرى، لأنها للجميع بلا استثناء) لم يتعلّم فيها هؤلاء شيئًا، ولا بدّ من خيمة يحتمون بها، ويبتهلون، وهذا ما وجدته فيهم، أي ارتباطهم بأحزاب عنصرية شوفينية أو طائفية متطرّفة، أحزاب لا تحترم وحدة التراب العراقي والدولة المَدَنية، وتنهج نهج الذي عارضته نفسه.

كنتُ أظنّ أن الانتهازيّ مَن كتب ومدح صدّام حسين فقط، لكن وجودي في زي الجديدة، الذي أطلقتُ عليها (مَنفاي الجميل) علّمني الكثير، وهو ما أشرتُ إليه في أعلاه، لأكتشف حجم الخراب الذي ساهم فيه هؤلاء الذين ظَننتُ أنهم مَبدئيون، أحرار، لم تتلوّث أقلامهم بانتهازية ومديح سلطة ما، ومحاباة سلطوي أو متطرّف، وهم فخر العراق، ليتضح لي أن هؤلاء على الرغم من تمتّعهم بالحُرّيّة والأمان والضمان الاجتماعي، ومعايشة المجتمع المتمدّن الحداثوي، لم ينهلوا من ينابيعه الصافية، وتطوّره الإيجابي، ليُشكّلوا نخبة تُحتذى من قِبَل الجميع، ولطروحاتها صدى مهمًّا في النفوس التي تُتابعهم بإعجاب، وفي الوقت نفسه، تكون هذه الطروحات ركيزة أساسية لبناء مجتمع متمدّن حداثوي، تتغيّر فيه وجوه الزعامات الحزبية بين فترة وأخرى، وتخطو منظّمات المجتمع المدَني قُدُمًا في خلايا المجتمع، لترسيخ قِيَم التعايش السِلْمي والتعدّدية الثقافية والسياسية.

إن هؤلاء المثقّفين يشكّلون ثقلًا كبيرًا من مجتمع المثقّفين العراقيين في المنافي، وساعدتهم انتهازيّتهم ومحاباتهم للأحزاب، ولاسيما اليساريين الذين حاربوا القوميين العرب في العراق محاربة "كسر العَظْم" تسبّبت في خَلْق كراهية للعروبة من قِبَل عربه أنفسهم، ساعدهم في ذلك عنف ودموية الأحزاب القومية، وما شهدته من استبداد وتطرّف من جهة، ودور اليساريين غير العرب الذين كانوا يساريين على شرط الولاء المطلق لقوميّتهم وكراهية العرب إلى درجة العنصرية البغيضة، فتمّ رسم صورة، ساهم الثلاثة فيها (مثقّفون يساريون + سلطة استبدادية غاشمة + يسار غير عربي، يتّفق تمامًا مع طروحات أحزابهم القومية المتطرّفة)، هذه الصورة تُظهر العربي يتّفق والسرديات الإسلامية التي خُطّت بفَهْم لا يرى أهمّيّة للإسلام إلا بالحظ من العرب، والاستشراقية التي عدّت هذه أدلّة،

لتبرّر غزو دولها وسيطرة حكوماتها، وتمّ تغييب عراقة العرب في المنطقة عمومًا، والعراق خصوصًا. فلم تشفع وثائق التاريخ كلها عند المؤرّخين والبلدانيين اليونانيين والرومان والسريان، ولا النقوش التي تؤكّد وجود العرب في المنطقة.

كنتُ كلّما أزداد معرفة بتاريخ بلدي، وانغماسًا بالمجتمع النيوزلندي، وتنوّعه وقِيَمه وإجبار الجميع على تعلّم لغة واحدة جامعة، مع التأكيد على اهتمامهم ببقية اللغات، ودعمهم المالي والمعنوي لها، والاعتزاز بالتنوّع عبر جعل المهرجانات المحلية (يوم المدينة مثالًا) والوطنية عبارة عن استعراض للأزياء والمطبخ والفنون التقليدية لكل قومية وعِرق، ودعوة الجميع أن يتمسّكوا بجذورهم وبأوطانهم الأمّ، على شرط الولاء أوّلًا لهذا البلد (زي الجديدة)، يزداد ألمي وقلقي، ويتكشّف لي الخراب أكثر، فلم أقرأ خطابًا عراقيًا عقلانيًا وواقعيًا، جرائم البعثيين جعلت التمسك بالثوابت يعني الميول للنظام السابق، وكأن الجميع وافق على جريمة نظام، بجعله الممثّل الحقيقي والوحيد للعراق وللعرب وللعروبة.

ثمّة حالة منتشرة بين اللاجئين والمهاجرين، لا تخلو طائفة منهم، أعني نجدها عند العراقي والسوداني والروسي و"اليوغسلافي" والمصري والمغربي وبقية الجنسيات والأقوام، ألا وهي المقارنة بين الثقافة النيوزلندية، وثقافة الوطن الأمّ، ولا ننسى أن القومي العنصري لا يقارن بينهما، وإنما بين قوميّته وبلد التوطين، فهؤلاء الهاربون من جحيم أوطانهم طلبًا لحياة كريمة حُرّة، تُقدّر الإنسان، وتؤمن قولًا وفعلًا بحقوق الإنسان، وبمجتمع اللاعنف، والضمان الاجتماعي، لكي لا يضطر المواطن أن يسرق أو يمدّ يده، وتمتلىء الشوارع بالشحّاذين؛ هذا اللاجئ نفسه ينسى كل ما قاله وزعمه أمام مَن قابله أو قابلوه، ودوّنوا إفادته، عن جحيم بلده، فتراه يؤكّد أن ثقافته أفضل وأرقى. ولأني أدوّن هذه الذكريات، وأنا في السودان، فإنني أتذكّر سوادنيًا، قابلته مصادفة، وهو لاجئ، راح يقارن بين المجتمعين، مدافعًا عن قانون "الشريعة الإسلامية" في السودان، ذامًّا فضاء الحُرّيّة الواسع وحقوق الإنسان في آوْتآرِوَا، معلّلًا الأمر أن القانون السوداني لم يسمح لشاربي الخمر ولسواهم أن يُعلنوا ما يرتكبوا "من آثام" بحسب زعمه، لكننا نلاحظ على العكس هنا في زي الجديدة، تتباهى السحاقية أنها سحاقية، واللوطي ومحتسي الخمر بأنهما كذلك .

هذه الحالة هي حالة مَرَضيّة، لا يمكن للاجئ أن يتخلّص منها إلا

بنقيضها، أي بالإساءة لكل ما موجود في وطنه الأمّ، والتمجيد لكل ما هو في بلد التوطين، واللاجئ لا ينتبه لها، ولو كان ثمّة قانون في هذه البلدان يحاسب على هكذا كلام (ومن حسن حظّنا أن قانون حقوق الإنسان لا يسمح) لتمّ استدعاء كل مَن يتفوّه بكلام كهذا، ويُقدّم إلى المحاكمة؛ ماذا يقول السوداني أمام المحكمة؟ وماذا سيبرّر المسلم انزعاجه من أن الأذان لا يرتفع في المآذن، والملاهي والحانات في كل مكان؟ وهي فعلًا في كل مكان، فلا يخلو مطعم من خمور ولا محل بقالية ولا مركز تسويقي، وماذا سيكون جواب الهنديّ الذي يتألم ويتذمّر لأن لحم البقر هو المفضّل عند النيوزلنديين؟ والحال نفسه ينطبق على الروسي واليوناني والقبرصي والتركي و"اليوغسلافي" واللاتيني والصيني والفيتنامي .... إلخ.

إن هذا التذمّر الذي وجدتُه لدى الجاليات كافّة، فتح الأبواب لي على مصراعيها، لمعرفة طريقة تفكير هذه الجاليات، وثقافاتها، ولأني لا أملّ من طرح الأسئلة، فلقد تعلّمتُ الكثير عن هذه المجتمعات وجغرافية وجودها في بلدانها، وكانت عونًا كبيرًا لي لفكّ الإشكاليات التي خلقتها الأنظمة المتعاقبة على الحكم في العراق، وخلقها المثقّفون العنصريون من غير العرب في العراق، بمساعدة المثقّفين اليساريين العراقيين الذين نَوّهتُ عنهم أعلاه، فَذَهَبتُ أشكّك بكل شيءٍ، وأركّز في قراءاتي على الدور الثقافي والاجتماعي والمنجز التدويني للقوميات والإثنيات في هذه المنطقة وتلك المدينة. وتعلّمتُ أن الشعر له الفضل الأعظم في تحديد صدق أو كذب الرحّالة والمؤرّخين والسياسيين، لأنني قرأتُ عن وثائق يعتمدها سياسيون ومثقّفون، يزعم كاتبوها أن هذه المناطق كانت بغالبية سكّانية لفئة ما، ورسموا خرائط يقدّسها القوميون من أبناء هذه الفئة، ويُكفّرون مَن لا يؤيّدهم، عبر اتّهامه بالعنصرية والشوفينية والعداء والكراهية لهم، والاستعلاء عليهم، وحين البحث، لم أجد لهذه الفئة شاعرًا ولا أديبًا ولا باحثًا ولا مؤرّخًا ينتمي لها، بل وجدتُ أن المنجز الكتابي على امتداد قرون طويلة جدًا، الذي سبقَ عشرينيات القرن العشرين يعود إلى ثلاث أو أربع لغات، ليست بينها هذه الفئة، فضلًا عن أسماء المناطق والمُدُن والبلدان والأحياء والمحلات السكنية والحارات، والبيوتات والأسر التي تُشكّل قوام النظام الاجتماعي ونسقه الثقافي.

تعلُّم اللغة الإنجليزية، والبحث عن عمل، أو دورات تعلّم لغة مجانية أو مدعومة من قِبَل دائرة الضمان الاجتماعي والعمل، ثمّ العمل متطوّعًا في شركة التصوير، والأهم هو قلّة الموارد المالية، فليس لي من مصدر سوى المساعدات الأسبوعية التي كانت تُعطى لي كعاطل عن العمل، إذ لا وجود لراتب للاجئ السياسي ولا الإنساني، فكل لاجئ يصل إلى بلد من بلدان اللجوء والهجرة، سقطت صفة اللجوء عنه، وأصبح مواطنًا عاطلًا عن العمل، واجب الدولة أن تساعده عبر دورات تعلّم اللغة، وأحيانًا دورات تهيئة للعمل، أي تطوير مهاراته، إذا كانوا بحاجة لها، أو ما شابهَ ذلك. وأكرّر مرّة أخرى، أن لا علاقة للوطن الأمّ، العراق أو غير العراق بأية مساعدة مالية ومعنوية تقدّمها حكومة بلد التوطين، وأيّ كلام عكس هذا، هو بعيد عن الصّحّة، ومن بناة الأوهام لغايات عديدة، منها لمنح الضمير إجازة عن العمل، ممّا يمنح مَن يزعم أن العراق يدفع مالًا لبلد التوطين عن اللاجئين العراقيين، التصالح مع أوهامه هذه، فهو يعلم أن هذه المبالغ من المال أكبر مصادرها حرام، بحسب الشريعة الإسلامية التي وضعها الفقهاء، لأنها متأتّية من أثمان الخمور والقمار والبغاء والرقص والغناء والتعرية وتجارة الخنزير وربا المصارف والبورصات والمضاربات المالية عمومًا.

كانت أوّل رحلة لي في الخامس من شهر كانون الثاني من عام ٢٠٠٠ ميلادية، وفيها زرتُ ليفين، وكانت أوّل احتكاك لي بالريف النيوزلندي، قضيتُ يومين مع الوعول والغزلان والطواويس والدجاج والطيور والأبقار والغنم، والخضروات والفواكه وبقية جزيئيات الريف المدهشة، شعرتُ بمرارة أنني احتجتُ إلى أكثر من سنتين ونصف على وصولي إلى زي الجديدة، حتّى أخرج بعيدًا عن العاصمة، وأتمتّع بالريف، لكن العائق كان ماليًا أوّلًا، وثانيًا حين ينوء أهلك في العراق تحت ظل الحصار الجائر الذي فرضته دول العالم عقابًا لاجتياح الكويت، وأن رأس النظام وذويه استغلّوه استغلالًا بشعًا، لجعل الشعب العراقي لا يفكّر بثورة، ولا حتّى معارضة، لأن الجوع أبشع أنواع الكفر والظلم والعدوان؛ نعم أمام ما يتعرّض له الأهل، وأنا في آخر بلد في العالم، بالكاد تكفيني المساعدات

الأسبوعية التي تمنحها لي الحكومة النيوزلندية، حتمًا لن أعرف السفر، ولن أفكّر فيه.

في مكاتب البريد، يبيعون مجلات وبطاقات بريدية (معايدات). هذه البطاقات لمناظر خلّابة في زي الجديدة، وبعض المجلات كذلك، كنتُ أنظر إلى هذه البطاقات البريدية، وأتصفّح المجلات وحسرات مشوبة بأمل أن أزور وأستمتع بهذه الأماكن التي منحت آوتآروَا هذا التفرّد بالجمال، أحيانًا كنتُ أشعر أن الوقت ليس بعيدًا، وفي أحايين أخرى ينتابني حزن، لأن الظروف ومهما أوتيتُ من قوّة، فلن تمنحني الفرصة، لأحقّق أحلامي، لكن الحقّ أن إصراري ساعده الحظّ، فعليّ الاعتراف أنني محظوظ، قد يكون القول إنني محظوظ، دليل تواضع منّي، لكن، أليس على المرء أن يَقمَع غروره ونرجسيته، بدلًا من ترك هذا الغرور وهذه النرجسية أن تنمو، فيتحوّل من شخص إلى شخصية، أي يوصل للناس صورة عنه مملوءة بالمبالغات، فيتركون مُنجزَه الإبداعي وموهبته وثقافته وتطوّر وعيه، ويتحدّثون عنه بصفة شخصية، وهو ما حدث مع كثيرين، منهم شعراء وأدباء، بالغوا باحتساء الخمر، وعرض أنفسهم كمدمني خمر، لا منتمين للواقع والمجتمع، متمرّدين عليه، وزاد خوفي يوم قرأتُ قبل سنوات طويلة، ربّما تزيد على العشرين سنة، للناقد حاتم الصكّر، حين تناول في مقالة له أحد الشعراء، منبّهًا إلى أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر، تركوا شعره، وركّزوا على حياته وسلوكه، وراح نفسه يفعل مثلما فعلوا، وتنبّه للأمر بقوله "ها أنني وقعتُ فيما وقعوا فيه"، كانت هذه المقالة تنبيهًا لي أن لا أجعل من حياتي شخصية يتحدّث الناس عن غرائب سلوكها، أو ما تعانيه، أو ما تمرُّ به من تجارب، على الرغم من أن تجاربي ثرية ومعرفية، ولا يمكن مقارنتها بحياة شاعر سكّير، مكانه بين مقهى وحانة، وأحيانًا ينام على رصيف، أو مصطبة، في حديقة ما.

كانت ليفين محطّتي الأولى لاكتشاف آوتآروَا، فالريف النيوزلندي ليس ريفًا سهلًا. إنه أقرب للمُتَموّج منه إلى الجبلي، فنسبة التلال تغطّي مساحات كبيرة من هذا البلد، الذي هو الأوّل بين بلدان العالم بالطيور البحرية، ويمتاز بكمّيات مياه كبيرة نتيجة لكثرة هطول الأمطار، فضلًا عن الأنهار والينابيع والشلالات والجداول والترع، وسلاسله الجبلية يَتَنَزّه الثلج على بعض قممها سريعًا، وبعضها ذكّرَني بالرعاة الجبليين الأكراد، وهم يتركون الوديان، ويصعدون مع مواشيهم وبهجة ألوان ملابسهم، في شهر آذار إلى مواطنهم المحبّبة في قلوبهم، قمم الجبال الشّمّاء. هل هو

الحنين إلى العراق وجباله التي سمعتُ عنها كثيرًا حتى زرتُها أوّل مرّة في منتصف الثمانينيات مرّتين، في إحداهما بسيّارة "جيب" قديمة، كان يمتلكها زوج خالتي المصوّر الذي علّمني التصوير الفوتوغرافي؟ كانت واحدة من أجمل رحلات العمر مع عائلة خالتي، وفيها اكتشفتُ بعض نواحي تخوم الموصل التي ذكرها المؤرّخون والبلدانيون المسلمون والعرب، قبل أكثر من ألف سنة، حين ذكروا حدود العراق بقولهم "العراق وَحَدُّهُ من تخوم الموصل شمالًا إلى بلاد عبادان على ساحل البحر جنوبًا، ومن حلوان شرقًا، إلى عذيب القادسية" وقام بعضهم بذِكْر المناطق التابعة للموصل تاريخيًا، ومنهم، أبو عبد الله شمس الدين محمّد بن أبي بكر المقدسي البشاري، المتوفّى سنة (٩٩٠ ميلادية) في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" في الصفحة (٥٤) بقوله " للموصل: نينوى، الحديثة (حديثة دجلة شمال الموصل)، معلثاي، الحسنية، تلعفر، سنجار، الجبال، بلد، أذرمة، برقعيد، نصيبين، دارا، كفرتوثا، رأس العين، ثمانين.

بعد زيارتي إلى بلدة ليفين (لِفِن)، التي وجدتُها منطقة شيخوخة بامتياز، لا أدري كيف شعرتُ أنها مدينة كبار السّنّ فيها هم الغالبية، كان الهدوء قاتلًا، يُشعرك بالوحدة والعزلة، ينهمر ذلك الإحساس المؤلم، بأنك تعيش في آخر بلد في العالم؛ هل البلدة هكذا؟ لا أستطيع الإجابة، بل هو إحساسي الذي انتابني في زياراتي الأخرى أيضًا، في حين هذا الإحساس، يخفّ كثيرًا، ليس في المُدُن والبلدات الأخرى، بل حتى في الريف، باستثناء بلدة صغيرة، وهي مركز حضري لحقول ومزارع وبساتين، فيها دائرة تقاطعية (دُوَار) واحد، وكانت مكاتبها الحضرية قد انتقلت إلى أقرب بلدة، فلم تعد ثمّة مكاتب للمصارف والبريد، وإلخ. جلستُ في حالة فرح أو سخرية من كل شيء، أو ربّما بهجة انتابتني في وسط الشارع، فلا مُهَيمِنُ هنا سوى الفراغ، ومع ذلك لم أشعر مثلما شعرتُ في ليفين؛ أظنّ أن منظر عدد كبير ممّن أدركتهم الشيخوخة هو الذي ترك هذا الانطباع عندي.

زرتُ وتجوّلتُ في أربعين مدينة وبلدة ومركزًا حضريًا. دخلتُ غابات كثيرة، وصعدتُ جبالًا، وكانت بي عادة تركتُها لاحقًا على مضض، وهي تذوّق ماء أي نهر أو جدول أو ترعة أو ساقية نمرّ بها، والآن أسأل هل كان هذا لأقارن بين طعم هذا الماء وطعم ماءَيْ الفرات ودجلة؟ هل كان هذا الشعور ينتابني لأن الحنين لم يغادرني؟ الحنين نوع من أنواع الوفاء، هو ضعف إنساني عند بعضهم، لكنني أراه نقاء الفطرة الإنسانية تتجلّى فيه، وبفضل الحنين اكتشفتُ أنني متصالح مع الأمكنة، ونظرتي للأمكنة

والأشياء والناس وكل شيء، نظرة إيجابية، وهو مما سمح لي أن أرى المُتَعَ في كل شيء، لا قبحَ في قاموس حياتي، إلا القتل والطغيان والدكتاتورية واللصوصية والتزوير والكذب والفساد الإداري والديني والثقافي والعنصرية والشوفينية وادّعاء النقاء والتفوّق، واحتلال الأمكنة تحتَ مُسَمّى الحقّ التاريخي أو الحقّ الواقعي، الأوّل تلفيقات سردية وَهمية عن عراقة فئة ما دون سواها في منطقة الأدلّة جميعها والنقوش والآثار والمنجز الكتابي والمسكوكات تؤكّد نقيض ما يقولون، أي أنها منطقة مختلطة ومتعدّدة الثقافات والأعراق، وأن هؤلاء لا يُشكّلون حتّى ربع سكّانها، وأن ميراث المنطقة المتنوّع لا يسمح بسيطرتهم، لاسيما الذين لم يعرفوا الكتابة، وليس لديهم ميراث كتابي وشعري وأدبي غزير في منطقة من أعرق المناطق الكتابية في العالم كالعراق وسورية مثلًا.

هذه المتع حفزتني إلى فَهم خاص لقراءة تاريخ العراق، أنا الغريب المنفيّ في آخر بلدان العالم. نمت تلك الأسئلة التي كانت تؤرّقني قليلًا، وتُخرج رأسها بين فترات متباعدة، أسئلة عن العراق والعرب والأكراد والتركمان والسريان والشبك واليزيدية والصابئة والفيلية، وكل اسم ومصطلح يشير إلى دين أو مذهب أو قومية أو عِرق أو إثنية، كان وجودي في العراق واندفاعي بقراءة الشعر والأدب والفكر وكُتُب النقد والأساطير حال دون أن أبحث عن إجابات لمعرفة هؤلاء. لكن الغربة والشعور بالنفيّ، الإنسان يشعر بالنفيّ حين لا يكون قد ترك بلده بمحض إرادته، أو في ظروف يعيشها البلد، لا تسمح للهارب من جحيم تلك الظروف أن يكون له خيارٌ آخر؛ ويكون الشعور أكثر تكريسًا بالنفي حين لا يستطيع اختيار البلد الذي وجد نفسه مضطرًا فيه، إذ لا خيار آخر.

تحاشيتُ الوقوع في الخطأ الجسيم الذي وقع فيه معظم مثقّفي العراق من الشعراء والأدباء والصحفيين، وهم يشكّلون النسبة الكبرى المهيمنة في تشكيل وعي الناس، بل وحتّى السياسي منهم، هذا الخطأ تمثّل في قراءة تاريخ العراق العتيق، وأعني بالعتيق ما سبق لحظة سقوط بابل على يد الأخمينيين في سنة ٥٣٩ قبل الميلاد. وعزوفهم عن قراءة تاريخ التنوّع اللغوي والديني والمذهبي والقومي ومراحل العراق التاريخية حتّى الوقت الراهن. هذه القراءة، والتي أخذت منّي سنوات طويلة، استطاعت الإجابة عن أسئلة كثيرة، ممّا ذُكِرَ أعلاه، أي التسميات العِرقية والقومية والإثنية والدينية والمذهبية، وفتحت الأبواب لي لفَهم الخراب الذي تسبّبت به الأنظمة، ومساهمة الشعراء الذين يمثّلون غالبية

أدباء ومثقفي العراق، لا يُستثنى الأواخر، في تقبل أكاذيب السياسيين، ولاسيما غير العرب فيه، مما جعل أي نقاش علمي يُفنّد زعم وأكاذيب السرديات التي بناها القوميون المتطرّفون في العراق، والتي أضحت تكبر وتكبر بمرور السنوات، كلّما ازداد العراق ضعفًا، فكم خطاب كان قبل أكثر من خمسين سنة يختلف اختلافًا كبيرًا عما عليه في السنوات الأخيرة.

كان كِتاب العراق بيدي، وأنا أقرأ كتاب الطبيعة، وأتفحّص وجوه الناس، وأتبخر في خلفياتهم الإثنية والعقائدية والجغرافية، وساعدني هذا التنقّل الكبير بين مناطق جغرافية مختلفة ومئات الإثنيات والعقائد، وقراءة مراحل التاريخ العراقي كلها، ووضع منهجية في القراءة والبحث، تعتمد الأدلّة العلمية والتطابق الكبير بين ادّعاءات المؤرّخين وزعم القوميين والمتطرّفين والانتهازيين من جهة، وبين المؤثّرات الثقافية والاجتماعية للفئة التي ينتمي لها المتطرّفون القوميون أو الطائفيون، من جهة أخرى. تعلّمتُ أن ثمّة مبالغات في الحديث عن التنوّع العراقي، لأن كثيرًا من الدول تنوّعها أكبر بكثير، ومشتركاتها أقلّ كثيرًا أيضًا. لكنها السياسة وسوء الإدارة، والخيانة التي يمارسها المثقّفون، عندما يكونون مع طائفتهم أو قوميّتهم أو اتجاههم السياسي، والأوامر الحزبية على حساب العراق، وطنًا وأرضًا وشعبًا وتاريخًا وتراثًا. مأساة العراق التي تجلّت في أنظمة تعليمية، لم تحتف بالتنوّع المدهش فيه، ومجموعات تحكّمت بمصيره السياسي، وهي غير مؤهّلة تمامًا، أضف إلى ذلك الخيانة التي تحدّثتُ عنها، والتي مارسها المثقّفون، المؤدلجون على وجه الخصوص.

آوتـــاروا أو زي الجديدة بحسب البحار الهولندي الذي زارها أول مرّة، فمنحها اسم زي الجديدة تيمّنًا بمدينة زي الهولندية، وفي المركزية الأوربية اكتشفها، وهذه الكلمة تثير الريبة، كيف اكتشفها وهي بلاد مملوءة بشعوب، لها ثقافاتها، ومعنى اسمها باللغة الماورية، الغيمة البيضاء الطويلة، لكنها بلاد براكين وزلازل، وماء وخضراء ووجه حسن وطيور في كل مكان، لم أرَ نوارس مثلما رأيتُ فيها، ورحلاتي الكثيرة إلى الريف، أو مرورًا بالمزارع المحاذية إلى الطُرُق الخارجية، رأيتُ أغنامًا لم أرَ مثلها في أي بلد آخر. على الرغم من مرور خمس سنوات على وجودي في هذه البلاد، لكن صورتها بوصفها بلدًا مانحًا للّجوء، لم تتهمش أوهامها تمامًا. فلقد اعتقدت أن البنية التحتية على مستوى واحد في أبعد زوايا الريف المهملة، مثلما عليه الحال في مراكز المُدُن الكبيرة؛ ففي رحلة إلى شرق البلاد، محافظة هوكس بي، وإلى مدينتَي هايستنغ ونَيبير، لاحظتُ في طريق العودة عبر الريف، أن الشوارع تبليطها ليس جيدًا، ويمكن القول إنه في بعض المناطق أقرب إلى السيئ، سألتُ الشخص الذي كان يقود السيارة، وهو كيوي، أي نيوزلندي، نزح أجداده من إنجلترا وإسكتْلَندا في القرن التاسع عشر؛ فأخبرني "أن طُرُق زي الجديدة الريفية يغلب عليها هذا الطابع، كثرة الأمطار والانزياحات الجبلية، وعوامل عديدة"، ومن الواضح أن الوضع الاقتصادي لا يسمح بالترميم وإعادة التبليط، كلّما رقصت الأرض تحت القير (الأسفلت)، أو على سفوح التلال الوقحة، وحينما ترمي السماء بعطرها، وتدفّق العطر من قمم وسفوح التلال والجبال على الوادي، تركض التلال نحوه، فضلًا عن الأبقار التي لا يحلو لها الرقص إلا على اللون الأسود والرمادي الغامق، وعلينا أن نتذكر أن هذه البلاد أرضها ناشطة بركانيًا، وهـزّاتها الأرضية تكاد لا تتوقّف.

في ليلة ماطرة، في أعماق الريف نفسه، كان المطر شديدًا، وكثافة الأشجار تزيده حلكة، ماسحتا زجاج السيارة الأمامي تعملان بكل طاقتهما، ومع ذلك كأنهما عاطلتان، في أعماق النأي الآن، ليل دامس، حضر الحزن، كنتُ أعزلَ، فاجتمع الحزن والغربة والشعور بالنفي والوحدة عليّ، تذكّرتُ لغتي التي لم أعد أتحدث بها، هي أدهش وأدق لغة حتمًا، فكلمة الخنيث لم تُستعمَل باطلًا، والجملة العراقية الشهيرة "وِليّةْ مخانيث" معبرة وبدقّة عن

الحالة التي تعرّضتُ إليها، عن أسري من قِبَل الحزن والغربة والمنفى والوحدة، كانت دموعي لا تقلّ في هطولها عن المطر، تذكّرتُ كلَّ شيء، تلك حياة يطاردني ماضيها، توهّمتُ أني تركتُها خلفي، لم يخطر ببالي حين رميتُ أوجاعي في الفرات، أن المياه ستصبّ في الخليج، ثمّ تلتحم بالبحر، فالمحيط الهندي، لتعبر المحيط الهادئ، وتتفرّس فيّ، كلّما أطعمت منفاي أحلامًا جديدة؛ لن أنسى، وعليّ أن أهدهد ماضيّ مثل طفل، سَكَنَتْه الحُمّى.

طائر الكيوي، كائن ليليّ، عاطل عن التحليق، رمز البلاد، ويُطلق على النيوزلندي، مثلما على الأسترالي أوزي، هذا الطائر كسر قيود خوفه، وطار محلّقًا يحرسني في سماء أرض إوي، وهذه تسمية أخرى لأرض زي الجديدة؛ وكان يعتذر منّي نهارًا، ليحوم حول رأسي، ما إنْ يبدأ المغيب؛ ألبسني حجرًا أخضر معلّلًا الأمر، أن الحجر الأخضر ممّا تشتهر به بلاد إوي، وهو رمز، له دلالته عند المسلمين، ومن الألوان المحبّبة إلى نفسي، بقيَ الحجر معي، وحتّى صعودي إلى الطائرة مغادرًا إلى اليابان (هيروشيما)، كان يَسترخي فوق صدري، لكن، أجهل تمامًا كيف فقدتُه، ففي الطائرة قبل الهبوط في تايبه (تايوان)، وضعتُ يدي على صدري، مثلما اعتدتُ، فلم أجده، هل ثمّة لغز في فقده؟ هل الحجر كان يحوي خصائص، أجهلها؟ لم أجد تفسيرًا للأمر حتّى كتابة هذه السطور.

مدينة غِسبُرن أوّل مدينة تستقبل شروق الشمس في العالم، وحين زرتُ النقطة الأولى، وفيه نُصبٌ ومكان، يزورهما الناس للتمتّع بأوّل شروق للشمس على الأرض، أعني النقطة الأولى التي تُلامسها الشمس، هنا في هذا المكان المطلّ على المحيط، وأمامه صخرة عملاقة، وليست جزيرة صغيرة، لا تبعد سوى مسافة مائية قليلة، قد لا تتجاوز مئات عدّة من الأمتار، تذكّرتُ أصدقائي، ذكرتُ أسماءهم فردًا فردًا، لم أُخبر معظمهم بالأمر، تذكُّري لهم يشبه الطقوس التي يقوم المسلمون بها حين يزورون مكانًا مقدّسًا، ويقومون بتذكّر أهلهم وذويهم وأصحابهم، والدعاء لهم، لم أدعُ لأحد، تمنّيتُهم معي، وجدتُ أن تذكُّر أسماءهم نوع من الوفاء والمحبّة، أتذكّر حين كنتُ أتسوّق كان الناس يتحدّثون عن غلاء الأسعار، وأن الحجج التي يسوقها التجّار في رفع بضائعهم، كارتفاع الدولار النيوزلندي، وارتفاع أسعار النفط، من المفروض أنها تزول مع انخفاض الدولار النيوزلندي، وأسعار النفط كذلك، عقّبتُ على المتحدّثين بعد أخذ الإذن منهم، بقولي: إنها طبيعة التجّار في العالم وعبر العصور.

ما بين مدينة غِسبُرن ومدينة تارونغا (الغين مخفّفة جدًا في أثناء اللفظ، وإهمالها شائع) منطقة ماوريّة بامتياز، لكن هذه المنطقة تحكي قصّة ذوبان الأقلّيات والسكّان الأقدم بالنازحين الأقوياء حاملي ثقافة كتابية رصينة، تعزّزها ثلاث قوى، سياسية وعسكرية واقتصادية، فلقد هاجر الكثير من سكّان هذه المنطقة وسواها نحو المُدُن لتحسين المستوى المعاشي، وتلبية لطموحات تلبّيها المُدُن عادة، في حين تضيق المناطق الفقيرة بها، والريفية والقَبَلِيّة؛ هنا لا يعني أن الحكومة النيوزلندية هي السبب الرئيس والوحيد في هذه الهجرة، التي جعلت آلافًا من الماوريين يقطعون الصلات بقبائلهم وهويّتهم الماورية، فيتمدّنون على الطريقة الإنغلوسكسونية، على الرغم من أن الحكومة النيوزلندية لا تضمّ بين صفوفها ملائكة، إنما هي سُنّة الحياة.

ما حدث في هذه المناطق، نراه جليًا لو تتبّعنا تاريخ العراق، فلقد حاول العرب المسلمون، أن يتجنّبوا المُدُن للحفاظ عليها، فأسّسوا مُدَنًا جديدة مجاورة، وهم الذين يملكون خبرة واسعة في تأسيس المُدُن، تمتدّ لأكثر من ألف سنة قبل الإسلام، إن لم يكن قبل المسيحية؛ لكن النتيجة أن محاولتهم باء ت بالإخفاق، فلقد تسلّل الشباب الطامح إلى حياة أفضل، نحو المُدُن الجديدة، وتَشَرَّب الثقافة الإسلامية، فمَن كان عربيًا اعتنق الإسلام، ومَن كان سريانيًا تَعَرَّبَ، واعتنق الدين الجديد، وبمثل هذا، انفضّ السامرُ عن المُدُن القديمة، بل وعن معظم القرى، ممّا جعل العراق يعاني من شحّة في المواد الزراعية، وأدّى هذا إلى ارتفاع أسعار الحبوب والخضروات والفواكه، وحينها اتُّخِذَ الحجّاج بن يوسف الثقفي قرارًا تاريخيًا، ما يزال يثير زوبعة بين مؤيّد له، على الرغم من إيمان المؤيّدين بقسوة وصرامة حاكم العراق وعمل العراق، وهما مصطلحان مختلفان؛ وبين معارض لهذا القرار الذي أجبر القرويين إلى العودة إلى قراهم، وغالبيّتهم ألفوا حياة المُدُن، واستأنسوا بها، على أن المعارضين مشكلتهم الأساسية الحجّاج بن يوسف الثقفي نفسه، فهم لا يرون له عملًا جديرًا بالاحترام، حتّى إن أعماله في تعريب الدواوين والنقود وفي تنقيط الكتابة وإخراج القرآن الكريم كتاب المسلمين بحلّته التي لم تتَغَيَّر حتّى الآن، وأعماله الأخرى بما فيها قسوته مع ذويه ونظافة يده من المال العامّ، لا يأتون على ذِكْرها أبدًا، فلقد جعلت قسوته من معارضيه أن يُبادلوه القسوة بمثلها، والنتيجة ذهبت أعماله التعريبية على سبيل المثال إلى غيره، ونُسِبَت إلى الفُرس، وهذا لا يقلّل من دور الفُرس والسريان في الحضارة العربية الإسلامية.

تُعدّ مدينة روتوروا مركزًا ثقافيًا ماوريًا، وفيها التقيتُ مجنون الحمّة، وهذا المجنون أخذ لقبه من الحِمم، أي الينابيع الساخنة بروائحها الكبريتية والفسفورية المنتشرة في البلدة، بادرني بسؤال كثيرًا ما يتردّد هنا "مِن أين أنتَ؟" أجبتُه من العراق، فردّد: جلجامش، الحانة، الجعة. فسألتُه مستفسرًا عن الكلمة خشية أنني سمعتُها خطأ (الجعة؟) أجاب نعم، فأنتم أوّل مَن صنع الجعة محبوبتي، ومَسكَني من يدي "تعال لأريكَ هذه الينابيع الساخنة" مضيتُ معه، بهندامه الرثّ وشعره المجعّد، والذي لم يرَ الماء منذ سنوات، ألوان ملابسه تغيّرت، يغلب عليها ما تتركه أشعّة الشمس على الملابس التي تُنشَر على حبال الغسيل لشهور طويلة، فشمس آوتآرِوَا، ونتيجة لفتحة الأزون، سخونتها حارقة، تذكّرني بأيّام الطفولة حين كنّا نستعمل مرايا خاصّة، تجعل أشعّة الشمس تتركّز في نقطة واحدة من الجسم، ممّا يتسبّب بحروق هيّنة، نحسّها، هذا ما شعرتُ به وأنا أسير تحت شمس أرض إوي الحارقة.

ما إن سرنا خطوات عدّة حتّى شرع يسألني أسئلة عديدة، وما إن عرف أنني شاعر وعندي أكثر من إصدار، فإذا بحديثه عن العشق وأهمّيّة الإلهام للشاعر، وأن الحبيبة تؤدّي دورًا كبيرًا، كان يتحدّث بلغة تنمّ عن معرفة جيدة بالعملية الشعرية والإبداع والكتابة عمومًا، كُنّا نتمشّى، ويقطع حديثه فجأة، ليُشير إلى الينابيع الصفر الساخنة، ويردّد نحن نستنشق هواء فسفوريًا، إذن جزء من تركيبتنا فسفورية أكثر ممّا لدى البشر خارج نطاق هذه البلدة، ثمّ يعاود الحديث من النقطة نفسها، وانتبهتُ إلى أنه أكثر من مرّة في منتصف جملة، وقطعها، وراح يشير إلى الناس والأشجار، ثمّ عاد وأكمل الجملة من حيث انتهى، وكأنه لم يقطع حديثه البتّة؛ بعد حديث طويل سمعتُه منه عن أهمّيّة الحبيبة والإلهام والملهمة، طلب منّي أن أشتري له جعة، سألتُه لماذا؟ أجاب "إن لديكم حبيباتكم، هنّ مُلهمات، وأنا الجعة مُلهمتي" قلتُ سأعطيك مالًا، انتفض بقوّة حتّى إنني خلتُ نفسي أن جرحًا عميقًا سبّبتُه له بكلامي، الذي لا أشك أن فيه ما يخدش، لكني أيقنتُ أن ثمّة حقيقة، فما لا يخدشك وتراه طبيعيًا عليك أن تحترم مَن يراه العكس، فمجنون الحمّة، يؤمن أن مَن يشتري له طعامًا أو شرابًا، فهو أمر لا عيب فيه، إنما العيب في تقديم المال إليه، لأنها شحاذة وجدّيّة بحسب ما يراه.

أخبرني أن الجميع ينادونه مجنون الحمّة، في بادئ الأمر، كانت التسمية تستفزّه، ولكنه وجدها ميزة له، تُسعده، وأردف بأن النيوزلنديين

وغالبية من الإنغلوسكسونيين يجهلون الكثير عن فلاسفة ومفكّري وإناسيّي (إنثروبولوجيي) ومبدعي العالم غير الناطق بالإنجليزية، وأن أساتذة في جامعة أوكلاند على سبيل المثال، معرفتهم بهؤلاء لا تصل إلى عُشر معرفته هو، وبدأ يعدّد أسماء الشعراء والأدباء والمفكّرين والفلاسفة والمنظّرين والإناسيين والنفسانيين الآثاريين والمؤرّخين الذين قرأ لهم بالإنجليزية لغته الأولى، وباللغتين الفرنسية والألمانية. كان يتحدّث لي مرّة كفيلسوف، وأخرى كشاعر، وثالثة كباحث إناسيّ، ورابعة كمُؤرّخ وآثاريّ، لم يُنكر العقلية التوراتية التي سيطرت على الآثاريين الغربيين في حفرياتهم، وكأن التوراة كتاب علميّ، ووثيقة لا غُبار على دقّتها العلمية بحسب قوله.

عندما أخبرتُه أن الكثير من باحثينا ما يزالون يعدّون العقل الغربي المؤسّس لسرديات المنطقة هو الأدقّ، أعني ما زعمه هؤلاء الغربيون وهم يتتبّعون التوراة، ويرفعون من شأن الفئات التي تعيش على الأطراف، ولا تملك تاريخًا، فنسبوها إلى الأقوام البائدة، وبعضها لم يعرف الكتابة حتّى القرن العشرين، بل وبينها مَن ليس باستطاعته أن يذكر أسماء مئة وعشرين شاعرًا، ينتمون له ثقافيًا ولغويًا، أي أن شعرهم كان بلغته، وقد وُلدوا قبل القرن العشرين، وأن هؤلاء الباحثين والمثقّفين وجُلّهم من العرب، يردّدون هذه الأكاذيب، صرخ بصوت حشرجته طغت على كل شيء "مزيد من الجعة، لأوقف بشاعةَ هذا التقيـُؤِ".

كان لقائي به ممتعًا، وخفّفَ من شراسة الروائح الفسفورية التي تطغى على المكان، وذعثه، وبقيث كلماته ترنّ في أذني "أيّها العراقيّ، إن المنجز الثقافي الذي دُوّن في بغداد والبصرة والكوفة والحيرة هو امتداد حقيقي وابن بار للمنجز الثقافي في أور وأريدو ولكش ونُفّر وبابل ونينوى وآشور وأربائيلو وباعقوبا ونوهدرا، فلا تفضّل بعضهم على بعض، فالمنجز عراقيّ، عربيًا كان أو سومريًا أو آكاديًا أو سريانيًا"، ردّدتُها مع نفسي مرارًا، ودوّنتُها في الذاكرة، أكتب هذه الحادثة، وأنا على يقين أن مجنون الحمّة، هذا الماوري بدماء أيرلندية وإسكوتلندية، أرحم على العراق وميراثه ومنجزه العربي من آلاف العراقيين الذين أصبحوا يتلذّذون بالإساءة لعروبتهم؛ حقًّا خذوا الحكمة من أفواه المجانين الذين هم أكثر وعيًا وإحساسًا بالجمال والحقيقة والمحبّة والعدالة.

مدينة تارونغا (الغين مخفّفة جدًا في أثناء اللفظ، وإهمالها شائع) والشائع عنها أنها أحد مراكز التجارة والثقافة والأزياء وعلوم البستنة،

تشتهر بفاكهة الكيوي، والحمضيات التي قادتني إلى محافظَتَي ديالى وكربلاء، الأولى شهيرة بالحمضيات، والثانية بدأت زراعته في العقود الأخيرة، ويمتاز برتقالها بخُلُوّه من الطعم الحامض، سُكّر حلاوته يُغري بالإدمان عليه، مثلما تُغري عباءات صباياها بوصف النظر إليهنّ عبادة؛ حاولتُ تحاشي الذكريات، لكن الآلاف من الناس يملؤون الشاطئ والمقاهي والمطاعم، والفرح شلالات عطر يندلق من وجوه الجميع، وفي وطني دم وموت ودموع ووجوه يندلق الأسى منها شلالات نواح عتّقتها العصور، أين الخَلَل؟ كنتُ أسأل وأنا أغبط الناس فرحتهم، وفي اللحظة نفسها، أتألم لما عليه الناس في وطني؛ هذه المدينة التي سكنها الماوريون بعد تحطيم بغداد على يد هولاكو بثلث قرن، أي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. هل نزح هؤلاء من العراق هروبًا من جحيم المغول ودمويّتهم، ومن شدة رعبهم، وصلوا بقواربهم التي تشبه قوارب عرب المستنقعات في جنوب العراق، إلى آخر بلد في العالم؟ سؤال راودني، وأنا أقارن بين موعد وصول هؤلاء وبين تلك الأسطورة التي رواها لي ماهوتا الماوري في تلك الغابة، وهو تحت الشلال الدائري العجائبي، عن نزوح الماؤريين من العراق.

على ضفّتَي نهر وايكاتو تشمخ رابع مُدُن زي الجديدة. هل كان الذين خرجوا من هاملتُن الإسكُتلندية، يعلمون أن مدينة هاملتُن التي بنوها كموقع لميلشيا الرجل الأبيض الذي شكّلها لردع الماوريين، وهم يدافعون عن أرضهم، ستحتلّ المرتبة الرابعة في سُلّم المُدُن النيوزلندية، وكأن المرتبة الرابعة لن تفارقها، فهاملتُن الإسكُتلندية تعدّ رابع بلدة في سكُتلندا. مدينة الضباب النيوزلندية، كنتُ محظوظًا في أثناء زيارتي الوحيدة لها، كان الطقس جميلًا، السماء التي تودّع غيومها سريعًا، فتصفو السماء إلى الشمس، مثلما تصفو الأيّام أحيانًا لنا، فلا نصدّق صفاءها إلا باعتباره يكمن غدرًا خلف ذلك، أي مثل الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ لكن الأيّام التي قضيتُها هناك قرّبها إلى النفس لأنني أفتقد إلى شيئين فيها لم أجدهما في وَلنغتُن، النهر الذي يُعيدني إلى فكرة الأنهار، وهي تتوسّط مُدُن بلادي، وهدوء الريح؛ إن الريح في هاملتُن أرملة في عِدّتها، فلا يُسمَع لها صوت، الريح هنا خرساء، وفي وَلنغتُن عويلها يُدمي القلب، ويُشعل الحنين المخضّب بالندم. والمدينة ليست بعيدة عن أرض أوك (أوكلاند) أكبر مدينة في البلاد، وفي الجزيرة الشمالية، يعيش ثلاثة أرباع السكّان، ويغلب عليهم التنوّع العِرقي الكبير.

كيف للإنسان أن ينسى مَن يحبّ؟! حضور العراق في كل شيء، هو

وفاء لِوَطَني، أتحجّج بالبرد ورياح وَلنغتُن العاتية، فأحنّ إلى شمس العراق، وهدوء الرياح فيه، أستمتع بنهر وايكاتو الذي يسري منتشيًا وسط مدينة هاملتون، إذ لا رياح تُغضب أمواجه، يحضر العراق بدجلته وفراته، وبغداد بكرخها ورصافتها؛ في هاملتون طربتُ لنهر وايكاتو، مثل طرب ذلك الضابط العراقي في الحرب العراقية الإيرانية، وهو في جنوب العراق، بِـزَيْلِهم العسكري، وإذا بمجموعة من الجِمال، فتَرَجَّلَ من عربته العسكرية، وركض نحو الجمال يقبلها، ويداعبها بيديه ووجهه، أتذكّر جيدًا عندما أخبرنا ابن خال أمّي نشبت عصبيّتي المَدينية، لكن حكمة المرحومة أمّي أبتْ أن أعيب على الضابط حنينه إلى بيئته الأولى.

هذا الحنين هو نفسه كان يقودني إلى أبعد نقطة في حيّ كيلْبَرني، إذ يظهر جبل المنتصرة (فيكتوريا)، وعلى اليمين يقودنا الشارع إلى حَيّ هتاينتاي، ويسارًا إلى حي البلدة الجديدة (نيوتاون) هناك ثمّة مساحة صفراء حدثت نتيجة شدّة الأمطار، مساحة صفراء صغيرة أقلّ من خمسين مترًا مربعًا، كنتُ كلّما أنظر إليها، أتذكّر العراق، ثمّة رابط مشترك بيني وبينها، في بادئ الأمر، خدعتني مقولات المستشرقين والرحّالة والمؤرّخين الأجانب، بأن العرب أهل صحراء، وأنا الذي ترعرعتُ بين بساتين تزهو بالنخيل والحمضيات وأشجار ملكة الليل واليوكالبتوس والصفصاف والسدر. إن زي الجديدة التي منحتني فرصة ثمينة أن أتأمّل حياتي في جوانبها جمعاء، أتأمّل قراءاتي وعلاقاتي، حتى إني استعدتُ جملًا وكلمات تفوّه بها مَن حسبتُهم أصدقاء لي، ومرّت في حينها، لأن حُسن الظنّ بالآخرين جعلني أخدع نفسي، لأكتشف تلك السموم التي كانوا يدسّونها في أحاديثهم، ناظرين إلى تلقائيّتي ومحبّتي الكبيرة لهم على أنها سذاجة؛ قادني هذا التأمّل إلى أن عيني ثقّفت بالتنوّع البيئي، وأن وجود الخضرة في كل مكان يُتعبها، فالتنوّع البيئي في العراق ثراء للنظر، مثلما هو ثراء للمجتمع، ولكن السؤال الموجع: لقد استفاد الشاعر والفنّان والمبدع عمومًا من التنوّع البيئي في العراق، فكان الإبداع العراقي يدنو في كثير منه إلى مستوى العالمية، لو هُيّئت الأسباب لانتشاره، فهل استفاد السياسي العراقي من هذا التنوّع أيضًا؟ هل أنتج بيئة عراقية، تؤمن بالتنوّع، وتفخر به، وحوّل هذا التنوّع إلى كنز يدرّ أموالًا ورفاهية، وعزّز به الألفة بين المجتمع، وعزّز الاقتصاد؟ نعم، موجع أن السياسي العراقي نقيض المبدع العراقي.

في إحدى الغابات المليئة بالطيور، يوم قادتني خطاي، إلى نهر عبرتُه، كنتُ أنصتُ إلى شيءٍ مجهولٍ، فواصلتُ المسير، لأجدني أمام شلال دائريّ غريب، لا تُمكن رؤيته من بُعد عشرة أمتار، لأن الأشجار كانت تُشَكّل حاجزًا، فقبل الوصول كانت شجيرات كثيفة، يليها خطّ من الشجيرات التي لا ترتفع أعلى من قامة الإنسان كثيرًا، ثمّ خطّ من الأشجار قصيرة القامة، أي التي ارتفاعها لا يزيد عن ثلاثة أمتار في الغالب، وهي تأخذ مساحة كبيرة من الأعلى، ثمّ الأشجار التي تتراوح بين أربعة إلى ستة أمتار أو سبعة، وكان الخطّ الأخير مليئًا بالأشجار العالية، ثمّ تتكرّر الأشجار، ولكن، بالعكس، فتصبح الشجيرات الكثيفة التي لا يزيد ارتفاعها عن المتر أقرب إلى الشلال، ثمّ بقية الأشجار؛ لا أدري أأنا مَن اكتشف هذا الشلال؟ أم هو معروف عند الحكومة والناس في آوتآروَا؟ لأني حدّثتُ عديدين عنه، فلم يعرفوا شلالًا دائريًا، مثلما وصفتُ لهم، والمشكلة كانت بالمَريوانا، التي تُسكرني رائحتها، وتسبّب لي آلامًا في المعدة، فقد تعطّلت سيّارة الشخص الذي كثيرًا ما كان يرافقني في رحلاتي، وذهب إلى محطّة وقود، ليساعدونا في تصليحها، كنتُ أنتظر على مصطبة، وجاء مجموعة من الماوريين، تحدّثنا قليلًا، وبدؤوا بلَفّ سجائر الماريوانا، دخّنوها، ومزحوا معي، لأني رفضتُ تدخينها. كانوا ينفخون في وجهي، ممّا اضطرّني إلى تركهم، وكنّا على طريق عام، وخلفنا غابة، دخلتُها، ولم أعرف الرجوع، ليس لأني أضعتُ علامات الرجوع، مثلما حدث معي في غابات الأمازون، مَحمية ياسوني في الأكوادور.

وجدتُ نفسي من دون إرادة منّي أواصل المسير، لا أنكر أن طيورًا كثيرة أغرتني، وأن أشجارًا مثيرة دفعتني إلى رؤية المزيد من الغابة، حتى اصطدمتُ بهذا الطوق النباتي، فحاولتُ الالتفاف حوله، وقبل أن أقرّر العودة من حيث أتيتُ رأيتُ منفذًا، دخلتُ، وإذا بالشلال الدائري، في وسطه، يجلس شخص كبير بالسّنّ، ماوريّ بكل ما تعني الكلمة، بحسب تجربتي في هذه البلاد، وما رأيتُه من صور قديمة من القرن التاسع عشر للماوريين، سمرة تقترب من سمرة العراقيين الجنوبيين، سمرة غامقة،

وضخامة في الجسد، طويل القامة، كتفاه ذكّرتاني بما قرأته عن الأبطال ذوي الأكتاف والمناكب العريضة، فكان عريض المنكبين، ليس سوى قطعة قماش عليه، والوشمُ يغطي جسده، ضفيرتاه تلامسان مياه البركة التي تتساقط فيها مياه الشلال، ناداني بابتسامة، أراحتني "كيـورا" قال لي، وهذه الكلمة كثيرة الاستعمال في آوتَآرِوَا، للتدليل على حضور الثقافة الماورية في البلاد، كلمة واحدة تمّ عبرها الضحك على الماوريين، وبوصف ثقافتهم موازية إلى الثقافة الإنجليزية، ففي القانون أن آوتَآرِوَا مزدوجة الثقافة، أي الثقافة الماورية والثقافة الإنجليزية - البريطانية

مِنْ أين أنتَ؟ سألني، أجبته عراقي، أردف مباشرة "أخي، هل تعلم أن ثمة أسطورة بعيدة عندنا نحن الماوريين، تقول إننا أتينا من العراق، من البصرة انحدرنا بقواربنا" تذكّرتُ المشحوف العراقي في الأهوار (المستنقعات) وهو لا يختلف كثيرًا عن المشحوف الماوري. "اسمي ماهوتا" أخبرتُه اسمي، وأردفتُ: اسمك ذكّرني بإله الغابات والطيور عندكم "تاني ماهوتا"، شعرتُ بفرحه، فسألني: "ماذا تعرف عن آلهتنا وعنّا نحن الماوريين؟ أنتم تأتون إلى هنا وهمّكم الحصول على كل شي، إلا معرفة سكّان البلاد الأقدم". ذكرتُ له رَنغي نِوي، إله السماء والأعالي، تَنغاروَا، إله البحر والمياه، تافـيري، إله الرياح. أما معرفتي بكم، هي أنكم أتيتُم إلى هنا، وأطلقتم على هذه البلاد تسمية هي "آوتَآرِوَا، والتي تعني الغيمة البيضاء الطويلة، اختلفت الآراء حول أصولكم، منهم مَن يراكم من جزيرة هاوايي، وآخرون من أندنوسيا، ومنهم مَن يرى أنكم من الصين، أو جزء المحيط الهادئ.

ما إن توقّفتُ حتّى صرخ صرخة، لا أبالغ لو قلتُ إن الشلال الدائري راح يهتزّ، وسقطت كفيّات كبيرة من أوراق الأشجار، جعل يردّد الكلمة نفسها: باكِهه، باكِهَه، وتَلفّظ بمفردة شائعة على الألسن في هذه البلاد، كلمة إنجليزية بذيئة، تسمعها في كل مكان، كان عصبيّ المزاج، خلته سوف ينتقم منّي، ليشفي غليله من الباكِهَه، وهي مفردة ماوْرية تعني الأبيض، أو البيض، أي أن الماوْريين حين رأوا مرّة نزول البريطانيين غزاة على أرضهم، وهم سمرٌ، في حين أن البريطانيين بيض، ردّدوا هذه الكلمة، لكنهم لم يروهم آلهة، مثلما فعل السكّان الأصليون لأمريكا الجنوبية، سكّان حضارة الإنكا.

لاحظَ ماهوتا خوفي، وكيف لي أن لا أخاف، وأنا في مكان لا أظن أن حكومة البلاد وشرطتها تعرفه، ولو عرفوه، فلن يصلوا لأمري إلا وأنا نَسيّ

مَنسيٌ؟ فاقترب، وهو يقول لي: أيّها العراقي، نحن أخوة، كلانا ضحية لهؤلاء الباكِهَه، أخبرني ماذا فعلوا بكم؟ أجبتُه احتلّونا، وأوجدوا لنا مشاكل، وجلبوا أعدادًا كبيرة من غير العرب والتركمان، منهم مَن يتّفق معهم بالدين، وغالبية تتّفق معهم في العِزق، ولا أُنكر خطأنا، لأننا لا نقرأ تاريخنا الحديث، نجهل الهجرة التي قام بها التركمان خارج العراق بعد هزيمة العثمانيين، نعم، ليسوا جميعهم، ولكن آلافًا منهم ترك العراق، ونجهل أيضًا أن من المجموعات السكّانية التي لم يكن وجودها في العراق بحدوده الحالية، بنسبة تفوق التسعة والتسعين بالمئة، هم العرب والتركمان والشبك فقط، أي لا نجد في وثائق لجنة عصبة الأمم التي درست مشكلة الموصل لتحديد الحدود بين العراق وتركيا، عن نزوح عرب وتركمان وشبك من تركيا الحالية، ومن مناطق أخرى باتّجاه العمق العراقي، والحديث يطول في هذا الأمر، ومثلما في الاتّفاقية التي وقعوها معكم، كتبوا أن النصّ الإنجليزي هو المُعَوّل عليه، وفي ضوئه يتمّ تفسير المواد التي تُفَسّر بطريقتين مختلفتين، المعاهدات العراقية البريطانية جميعها تتضمّن هذا الشرط، ممّا يعني أن المادّة المختلف فيها، يتمّ إرسالها إلى محكمة في بريطانيا والقاضي البريطاني الذي تَشَيّع بثقافة حكومته وحقّها في "مساعدة هذه الشعوب المتخلّفة بالنهوض" سوف يُفَسّر مثلما تريد حكومته، وادّعاؤه المهنية العالية لا غبار عليه، لأن لا وعيه قاده إلى ما يتماشى مع حكومته.

صفقَ ماهوتا الماء بيديه، وهو يصرخ "نعم، نعم، هذا هو ما حدث، يا أخي" وكلمة أخي متداولة بين الماوريين، في حين لا تجد أبيضَ يقولها، هنا انخرط في نوبة بكاء وضحك في الوقت نفسه، وأمسى يجلجل بصوته: قالوا إننا أتينا ما بين القرن العاشر والثاني عشر، ممّا يعني أن المدّة التي تفصل بين آخر وصول لنا وأوّل وصول أوربي لا تزيد عن خمسة قرون، واتّهمونا بأننا وجدنا بشرًا هنا، فقُمنا بأكلهم، وأن أولئك البشر هم السكّان الأصليون فعلًا، وإذا كان الأوربي غازيًا، فنحن الماوريين غزاة وأكلة لحوم البشر، وأنهينا السكّان الأصليين بين أسناننا وفي مِعَدِنا، وبهذا نحن الأكثر توحّشًا بين الغزاة قاطبة، هل رأيتَ خبث الباكهه، يا أخي العراقي؟.

نحن قبائل مثلنا مثل أقوام كثيرة، ومنهم العرب، أليس الإسكُتلنديون قبائل؟ في عُرفنا أن المَراي مكانٌ مقدّس، لا يجوز للمرأة أن تتحدّث فيه، التزامها الصمت هو جزء من مقدّسنا، فكل مَراي له قانونه الخاصّ، وكثير

من المَرايات (جمع مَراي) يتكلّمون باللغة الماورية فقط، ويُمنَع الحديث باللغة الإنجليزية. المراي بيت اللقاء، ومكان للأكل، والأكل فيه مهمّ، يرحّبون بك في المراي بطريقتهم الخاصّة، فلا يجوز الدخول بلا ترحيب، ويقوم أحد المحاربين بالترحيب بالضيوف، وبعض المرايات (جمع مَراي)، المرأة تقف قرب باب المراي، وترحّب بالضيوف، والضيوف يقدّمون مالًا تبرّعًا (هدية) قبل الدخول، لينفع في تغطية ما يُعدّ من طعام، وفي داخله يتحدّثون عن أسلافهم، ويختمون حديثهم بأغنية، تتّفق وثقافتهم يردّدها الجميع. ثمّ الهونغي، وهو عناق الأنف للأنف، أي جعل الأنف يلامس الأنف من الجهة اليمنى، ثمّ يلامس الأنف من الجهة اليسرى، ثمّ المصافحة، ويعقبها تناول الطعام.

المساحة التي أمام المراي تمثّل إله الحرب توماتو أنغا، وعليه فالحديث أمام المراي يجب أن يكون بنبرةٍ قويّةٍ شديدةٍ، لأنه يُمثّل أو يعبر عن إله الحرب، لكن، في داخل المراي، فإن الحديث يمثّل إله السلام رؤنغوٗ، ولهذا نجد أن كلام ونبرة المتحدّث يكونان بعبق السلام والهدوء. إن الجلوس على الطاولات والمناضد والوسائد مُحَرم، نعم لدينا الحرام مثلما لديكم، ولكن، في أمور مختلفة، منها أن المرأة مُحرَّم عليها الوصول إلى مكان البناء، لا سيما مكان اجتماع القبيلة، أو الأماكن التي تُشبه المضيف والديوان والجامع والحسينية والكنيسة عندنا، أي أماكن الفعاليات الاجتماعية، حتّى يتمّ الانتهاء من البناية.

عندما نظرتُ إلى السماء، ومن ثمّ تلفّتُّ، ابتسم ماهوتا، وقال: يبدو أنك مرتبط بموعد، لا عليك، سعدتُ حقًّا بلقائك" أخبرتُه بسبب مجيئي، وبأنني لستُ وحدي، وأشعر أنني تأخّرتُ كثيرًا، فقال لي: اتبعني، تبعتُه، وفي أقلّ من دقيقة، وجدتني في مكاني الأوّل، والمصطبة فارغة، وإذا بالشخص يلوّح لي من بعيد، فقد جهزت السيّارة، وهو يستدير الآن، عند ذلك، قال لي ماهوتا، مودعًا: ربّما سنلتقي يومًا، والآن سأعود إلى الغابة، أرجوك، لا تلتفت خلفك وتُتابعني، حين وصلت السيّارة، وبما أن السائق يقود السيّارة، وهو يجلس على جهة اليمين، فإن مكان جلوسي أجبرني أن أنظر إلى الغابة، لألقي نظرة الوداع، فرأيتُ ماهوتا وقد تماهي تمامًا مع الغابة والطيور، حينها سألتُ نفسي هل كان هذا رجلًا حقيقياً؟ أم أنه إله الغابات والطيور تاني ماهوتا؟.

كنيسة رائنا: مؤسسها تاهوبؤتيكي ويرَمو رائنا. وُلد في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني ١٨٧٣، عندما مرض ابنه صام وصلى وتعبّد واستلم رسالة "سماوية". في الثامن من شهر تشرين الثاني ١٩١٨ أخبر عن طريق "الوحي" أو "الرؤيا" أن يوحّد الماؤريين، وأن يُداوي الناس بقدراته الروحية الخارقة، ويجعلهم لا يخشون من شيء كالإخفاق والتشكيك بقدراتهم، ولا يخافون الآلهة. أصبح تاهوبؤتيكي ويرَمو رائنا حديث الناس، وتوافدهم إليه يزداد يومًا بعد آخر، وتحوّل المكان الواقع أمام مزرعته مُخيّمًا لطالبي الشفاء، بعد أن تمكّن من شفاء ابنه وعددٍ من الناس، وأصبح مشهورًا، بوصفه شافيًا من الأمراض، أصبحت الكنائس المتنوّعة تدعمه، فهو يؤكّد ما تدعو إليه، أي قدرة الحياة الروحية في بناء سعادة الإنسان، ولكن، حين أصبح إيمانه بنفسه قويًا، وأنه "فم السلام للروح القُدُس"، رفضت الكنائس الأخرى وأتباعها ادّعاءه، وقالوا لأتباعهم "إن ما يزعمه رائنا هو الكذب بعينه"، لكن شخصيته القوية واعتداده بنفسه جعلاه يتخذ قراره التاريخي بإنشاء كنيسته الخاصّة.

في الحادي والعشرين من شهر تموز ١٩٢٥ افتتح كنيسته الخاصّة، وهي السنة نفسها التي تمّ اعتراف عصبة الأمم بأحقّية العراق في ولاية الموصل التي تُعدّ أرضًا تاريخية ضمن العراق التاريخي، ففي السادس عشر من شهر كانون الأوّل من سنة ١٩٢٥ ميلادية، أعلنت عصبة الأمم بأن ولاية الموصل (والتي تضمّ الموصل وأربيل والسليمانية وكركوك) هي أرض عراقية بحسب الوثائق، وأن اقتصادها مرتبط بولايَتي بغداد والبصرة، علمًا أن المصادر العربية والإسلامية وعلى امتداد قرون طويلة اتّفقت بهذه الحقيقة، ومنهم مَن توسّع بالقول، وذكر حتّى البلدات الصغيرة، ورسم الحدود وطولها وعرضها، وهو ما نراه واضحًا عند المسعودي والماوردي وياقوت الحموي. وفي هذه السنة أيضًا، تمّ أسر الأمير الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة والأحواز وابن عمّه الشيخ موسى حاكم عبادان، من قِبَل شاه إيران، لينتهي الحكم العربي في ذلك الجزء من بلاد العرب، ويصبح هذا الإقليم مُحتلًا، وضمن أملاك دولة إيران،

وباعتراف عراقي وعربي. والأقاليم العربية ستة بحسب صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، إذ يذكر في الصفحة التاسعة أن "الأقاليم العربية: جزيرة العرب، ثمّ العراق، ثمّ آقور، ثمّ الشام، ثمّ مصر، ثمّ المغرب" ويكرّر الكلام في الصفحة السابعة والأربعين بقوله " فالأقاليم أربعة عشر ستة عربية، جزيرة العرب، ثمّ العراق، ثمّ آقور، ثمّ الشام، ثمّ مصر، ثمّ المغرب".

في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني من سنة ١٩٢٨ ميلادية، تمّ افتتاح أوّل معبد، وهو عيد ميلاد مؤسّس الكنيسة "النبي" تاهوبؤتيكي ويرّمو رائنا، الخامس والخمسين، ومنذ ذلك الوقت، أصبح هذا اليوم يومًا للاحتفال السنوي، وكنتُ محظوظًا أنني شهدتُ الاحتفال أو جانبًا منه في سنة ٢٠٠٥، وهذه الكنيسة التي كشف الوجد والرؤيا لمؤسسها، وتلقّى وحيًا، كتابهم المركزي هو الإنجيل، ولكنهم يضعون كتاب الصلوات الذي كتبه رائنا، ككتاب مقدّس يأتي بعد الإنجيل؛ وللملائكة مكانة أكبر فيها ممّا لدى بقية المسيحيين، ورائنا الذي كان مهمومًا بقومه الماوريين، وجد نفسه أكثر قربًا إلى السياسة، ففيها يمكنه تحقيق الكثير، في حين لن يحقّق شيئًا يُذكَر لو اعتزل الحياة والسياسة، وتفرّغ للعبادة؛ وكان أوّل نائب من أتباعه يصبح عضوًا في مجلس النواب، في سنة ١٩٣٢، وكان اتّفاقه سنة ١٩٣٦ مع حزب العمل في غاية الذكاء، فلقد ساوم رائنا حزب العمل العتيد، بأنهم لو منحوه مقاعد الماوريين الأربعة في مجلس النوّاب، سوف يحثّ أتباعه على التصويت إلى حزب العمل، وقادة حزب العمل يُدركون تأثيره الكبير على أتباعه، فكلامه مقدّس، ولا يمكن أن لا يُنفّذ بحذافيره؛ ونتج عن هذا الاتفاق أن احتكر أتباع رائنا المقاعد الأربعة لمدّة خمسين سنة، أي أصبح رائنا وأتباعه الممثّل الوحيد للماوريين.

إن سعيه إلى توحيد الماوريين أدّى إلى نيل حقوقهم، بل ستجد ثمّة امتيازات لهم، وهم بالتأكيد نالوا هذه الحقوق قبل الأبورجينيين في أوستراليا والكثير من الأقوام الأصيلة في أغلب الدول، ولا تستغرب لو أن بعض العراقيين ممّن يرون أنفسهم سكّان العراق الأصليين فقط، في بلد لا يمكن أن ينطبق عليه ما هو كائن في العالم الجديد، أنهم يحلمون بامتيازات على حساب بقية الشعب العراقي، وهذه واحدة من نقاط الخَلَل وآليات التفكير الخاطئة عند عدد كبير من المثقّفين العراقيين في الخارج أنهم رأوا الأنظمة في الخارج، لم ينتبهوا إلى قانون المواطنة والخدمات الكبيرة والمهمّة التي تقدّمها الدولة للمواطن، ونظام الضريبة الذي لا يمكن

على أثره أن تُخفق الحكومة عكس النظام الريعي الذي يجعل المواطن عالة على الدولة يريد منها كل شيء، ولا يدفع ضريبة.

في العراق، ثمة نقاط تختلف جوهريًا عمّا عليه الحال في بلدان اللجوء، وهي أن غالبيّته هي نفسها سكّانه الأصليون، وأن لا وجود لفئة فيه، يمكنها أن تنكر بمنهجية علمية عكس هذا، وباستثناء الشبك وفئات قليلة العدد، فبقية فئات العراق تعيش فيه منذ أكثر من ألف سنة، بما فيهم الأرمن، الذين لم يخلُ العراق منهم يومًا نهائيًا، وإن كانت فئاتها جميعها لا يمكن لها الزعم أنها تعيش بنسبة ٩٩٪ فيه منذ قرون.

الروح القَبَلية والتراتبية الأبوية العشائرية واضحة في كنيسة رائنا، أوَلَيسَ الماورِيون قبائل؟ ومن هنا ليس بمستغرب أن رئيس الكنيسة يجب أن يكون أحد أفراد عائلة تاهوبوُتيكي ويرَمو رائنا، ونحن هنا أمام حكم أو سيطرة وراثية، وأن معتقد القوم يشبه المعتقد الإسلامي عند أغلب المسلمين أن الخليفة يجب أن يكون عَلَويًا أو قرشيًا عند الفقهاء قاطبة، باستثناء الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان العراقي السرياني، الذي أجاز، وهو مُحقّ، أن يكون الخليفة أو الإمام ممّن تصلح فيه مقوّمات الإمامة، بغضّ النظر عن عِرقه ونسبه، وكذلك ما هو مثبع عند الكنيسة النسطورية (الآثورية). وهذا المذهب، بحسب ما أظنّ، نَشَأ من الروح القومية الماورية، المُؤَسّسَة على تعدّد الآلهة، فكان إعلاء شأن الملائكة بديلًا للآلهة التي جحدوها على يد المبشّرين البريطانيين، وعدد كنائس هذا المذهب أو الدين الجديد مثلما يحلو لمَن يُخرجهم من دائرة المسيحية، ١٢٧ كنيسة تتبعه، ولديهم فروع في أستراليا بين الماوريين، إذ إن عددًا كبيرًا من الماوريين انتقلوا للعيش في أستراليا، لغرض اقتصادي، ففرص العمل أكثر، والرواتب أفضل، والحياة أرخص.

تاهوبوُتيكي ويرَمو رائنا الذي توفي في الثامن عشر من شهر أيلول سنة ١٩٣٩، أي لم يمضِ على بدء العمليات العسكرية للحرب العالمية الثانية سوى سبعة عشر يومًا، وكأن موته احتجاج على جنون البشر، هو الذي جعل من الجلوس تحت قبّة مجلس الأمّة طريقة وحيدة نحو الوصول إلى حقوق جزء حيوي من الأمّة.

رحلة حول الجزيرة الجنوبية

في الثامن والعشرين من شهر آذار ٢٠٠٤ وصلتُ نَلْسُن في شمال الجزيرة الجنوبية، وبدأتُ جولة حول الجزيرة الجنوبية، كانت إحدى أحلامي التي خلتُها لن تتحقّق بسهولة، ولم أكتف بهذا، بل زرتُ الجزيرة الثالثة، وهي جزيرة ستيوارت، التي تقطنها ٣٧٠ نسمة فقط لا غير؛ بدأت الرحلة من نَلْسُن، ثمّ بحيرة روتو إتي، وهي بحيرة لها مكانة كبيرة في نفسي، كنتُ قد زرتُها قبل هذا التاريخ أكثر من مرّة، وأذهلتني تمامًا مثلما في الصورة، ثمّ إلى مدينة ومنطقة الميناء الغربي (ويست بورت) وبعدها إلى الفم الرمادي "إغْرَي ماوث" وبتُّ ليلتي هناك، وفي طائرة صغيرة تتّسع لثلاثة أو خمسة أشخاص، استأجرتُها، وكانت جولة طيرانية حول جبل كوك، وهو أعلى جبل في زي الجديدة.

في هذه الرحلة، تعلّمتُ أمرًا مهمًّا بعد أن دفعتُ ثمنًا، في حين الطيّار يرتفع وينخفض بسرعة كبيرة مرّة فوق قمّة الجبل، ومرّات يلتفّ حول الجبل كأفعى تلتفّ على فريستها مرّة، وأخريات مثل عاشق يحتضن حبيبته بخصرها النحيف في رقصة تانغو؛ كنتُ بين أمرين، متعة المناظر التي أرى، وأنا غير مصدّق أن الجبل الذي كثيرًا ما درستُ عنه وذكرته مُعلّمات اللغة الإنجليزية ومعلّموها أمامي، وأنا أستمع لهم، وأرى الصور، وأتحسّس محفظتي الفارغة، والتي أهداها لي قريب لي في عمّان، فبقيتْ معي لسنوات، حتّى تهرّأت، وألعن تلك اللحظة التي تسبّبت شهامة أبي ودفاعه عن جارتنا التي باب بيتها الذي يقابل باب بيتنا تمامًا إلا انحرافًا لا يزيد عن ربع متر، فكانت طلقة مُسدّس تكفي ليودّع الدنيا، وأعيش أنا حياة حافلة بالحرمان واليتم، وآثارهما ندبتان تلطّخان حياتي.

كان أمر المتعة التي خلتُ أن رفيقة عمري وهي الوحدة توارت عن الأنظار خجلًا أمام هذه القصائد التي خطّتها الطبيعة هنا، يُشاركه أمرٌ آخرُ، وهو شعوري بصعوبة التنفّس، واحتقان الوجه، كدتُ أختنق حتّى قلتُ بصوت ضعيف، وبيدي التي تكلّمت نيابة عن فمي الذي راح يجد صعوبة في الكلام، فنظر لي الطيّار، وأخبرني أن وجهي أحمرُ، وأن عليّ أن أغلق أنفي، وأطلق زفيرًا قويًّا عدّة مرّات، وكانت النتيجة مدهشة، فقد شعرتُ

بتحسّن كبير حالًا، ومنذ تلك اللحظة، وأنا أفعل ما أخبرني به الطيّار كلّما هبطتْ طيّارة بنا بسرعة كبيرة، فمشكلتي ليست بالصعود، وإنما بالهبوط؛ هل لأني لا أجيد سوى الصعود، ولا أؤمن إلا بالصعود؟ ربّما، لكني تعلّمتُ درسًا لن أنساه، في الوقت نفسه، حقّقتُ حلمًا من أحلامي، ورغبة من رغباتي، وصرتُ كلّما أتذكّر تلك الرحلة، أشعر بها تشبه تلك الحلوى التي كُنّا نتناولها بنهم أيّام الطفولة، على الرغم من أنني تناولتُ ربّما أقلّ من الأطفال جميعهم، لأن ضريبة شجاعة وشهامة أبي كانت مانعًا قويًّا، إنها حلوى "الحامض حلو" ما ألذّها؟ هكذا هي رحلة الطيران في جولة حول أكبر جبل في آوتَآرِوَا.

بتنا ليلتنا في الفم الرمادي (إغزَي ماوث)، وفي اليوم الثاني، توجّهنا إلى هوكي تِكّا، بلدة صغيرة لا تختلف عن بلدات صغيرة أخرى في هذا البلد الذي لو قُدّر لسرعة الطائرة أن تتجاوز الألف ميل في الساعة، وبأسعار مخفّضة، مع دعاية جيدة، تجعل السياحة في آوتَآرِوَا نفطًا دائمًا، بعد هذه البلدة، وصلنا إلى بلدة هوكي تِكّا، ثمّ أكاريتوِ، وفيها حاولنا أن نشاهد طائر مالك الحزين الأبيض دون جدوى، فلم يكن موسم وجوده، ثمّ توجّهنا إلى بلدة فُـرَنْزْ يوسف (جوسف)، وبتنا ليلتنا هناك، لنتوجّه في اليوم التالي إلى ذلك النهر المتجمّد الذي نسيتُه وحيدًا دهور الانجماد المنقرضة، والذي يُدعى مَـجـلَـدَة الثعلب (فوكْس غْلَيسِيَر)، تلك مَحمية وطنية، لا يمكنك أن تترك شيئًا، ولا تحمل شيئًا، هي المرّة الأولى التي أرى فيها مَجلدةً (النهر الجليدي) حاولتُ أن أحمل شيئًا مهملًا للغاية معي كتذكارٍ من أوّل نهر جليديّ أراه وأزوره وأمشي عليه، مشيتُ بحرارة الصحراء التي تجلس متربّصة بمدينتي؛ أنا ابن أنهار وبساتين وحقول وجداول على يميني وحولي، وأنا أنظر شمالًا إلى أمّنا العظيمة بغداد، في حين الصحراء على يساري، كلّما غازل الفرات المنائرَ، استشاطت الصحراء غضبًا، عندئذ نُعطّر أيّامنا بقبلات صبايا بابل، ونردم التجاعيد بعيدًا.

ما حملتُه معي حصاة، خُضرتها خدعتني، حسبتُها من الأحجار التي تشتهر بها آوتَآرِوَا، وتُزيّن صدور الماوريين والماوريات، السمراوات اللواتي فيهنّ مَلمح عراقي مُطعّم بآسيوي، وشيء من حرارة أفريقية بشفاههنّ المفطومات على القُبَل؛ كنتُ جاهلًا بالحصى، فلم أفرّق بين خُضرة منعشة وبين خضراء الدمن، كانت الرطوبة سَخّمتها بخضرتها، فسخام النار أسود، وسخام الرطوبة أخضر، وسخام القلوب قيءٌ، لا تُنظّفه مساحيق التنظيف جميعها، ولا تزيل عفن رائحته العطور كلها، حتى لو أشفقتُ عليه بنظرةٍ

تلك المرأة التي قادني عطرها إلى القصيدة، فكتبتُ لها إهداءً، تَصَدَرَ مجموعتي الشعرية الثانية (خريف المآذن) .. هل نحن تناغم حضارتين؟.

بعد تلك الرحلة التي مهّدتْ إلى رحلات كثيرة، رأيتُ عن طريقها عددًا كبيرًا من الـمَجلّدات (الأنهار الجليدية)، ومشيتُ على بعضها، توجّهنا إلى بلدة ووناكا، وبحيرتها الجميلة، ونتيجة لما تتمتع به البحيرة من سِخر حتّى سيّارتنا ذات الدفع الرباعي راحت تصرخ، مزمورها لا يتوقّف عن إبداء دهشته، شعرتُ به يتلوّى من الجمال مثلي، هل رأيتَ شاعرًا يتلوّى من الجمال، فتُصاب بداء لوعته حتّى الجمادات المحيطة به؟ هذا ما حدث أمام هذه البحيرة التي تُطعم الناظرين إليها الدهشة، وتضع في أفواه طيورها موسيقى، تفسد عتاد الأسلحة، فلا تحتاج إلى عناء خيال، لترى الأسلحة تغنّي للحياة، وإذا أُطلقت فإنما تُطلق على الهدف وردًا وغارديناً.

بعد أن مزّت أسراب من الصبايا اللواتي نسينَ نصف ملابسهنّ في البيت على ما أظنّ، وكان نسيم البحيرة يحمل شَعرهنّ على أوتاره، صمتَ مزمور سيّارتنا، ولا أدري هل هو انبهار آخر أُصيبَ به من جرّاء هطول هذا الجمال الـمُحتشم بعُريهِ الباذخ، فكان نتيجة طبيعية لقول الشاعر "وداوني بالتي كانت هي الداء"، أي أن الصدمة ممكن أن تكون دواء فعّالًا، وهو ما كانت تؤمن به جدّتي لأبي؛ أم خجلًا من قهقهاتهنّ المريبة، لأنها تُشعل كل شيء في العابرين؟

ثمّ سارت بنا الطبيعة وهي تحملنا في طُرُق تستفيق خضرتها يوميًا، ولا تعرف الخريف المرّ، حقول تراقص المزارع والغابات مزامير تشعل الوقت ابتهاجًا، وصلنا بلدة الملكة (كوينس تاون)، وعلى كتفها قضينا ليلتنا، بلدة سياحية، وتستحقّ اسمها، وبجدارة، ومنها طرتُ إلى واحدة من أجمل بقاع الأرض، إنها مِلفورد ساوند، في طائرة صغيرة أقلّتني إلى المكان، وعلى امتداد نصف ساعة أو أكثر أو أقلّ، أدهشتني الطبيعة، فعلى الجبال تلك البحيرات والشلالات والأنهار، سحرتني حتّى سألتُ بعفوية: ماذا لو أن النبي محمّد هنا، كيف سيكون القرآن؟ بعد فترة طويلة، وأنا في أتيليه القاهرة، وكنّا مجموعة كبيرة ما بين شعراء وأدباء وأساتذة جامعيين وصلوا سنّ التقاعد، أو على مشارفه، وإذا بأحد هؤلاء وهو رجل ربّما خدمته في السلك الجامعي - الأكاديمي يزيد على ثلث قرن، ردّني بقوله "هذا لأن إيمانك ضعيف" استغربتُ من ردّة فعله، وسألتُ نفسي بألم: كيف للناس مهما وصلوا لمراكز علمية وتجربة حياتية كبيرة، يقمعون حتّى فطرة الإنسان على السؤال والاحتمال والافتراض، هذه الفطرة التي تجعل

هبطنا في مطار صغير للغاية، وتوجّهنا إلى القارب الذي سيقلّنا في رحلة خورية، والخور هو اللسان البحري، قبل الوصول إلى القارب بأمتار، رأيتُ شلال بوين، وهو أكبر شلالات آوتآرِوَا، سألتُ عن موعد تحرُّك القارب، فوجدتُ أن وقتًا كافيًا لديّ لأرتشف من مائهِ قبل أن أستحمّ بالخور، التقطتُ صورًا، وعانقني الشلال، كنتُ أحمي كاميرتي النيكون (أف ٨٠) بكل ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، شربتُ ماءً، وعدتُ من حيث أتيتُ، بعد صعودي للقارب بقليل، تحرّك وسط بهرجة الطبيعة، كأننا في حديقة حيوانات، أو في مكان من صنع البشر، فالدلافين أمامنا ترقص، والطيور فوقنا وعلى جانبينا شلالات لا حصر لها، وعلى ضفّتي اللسان البحري الذي لا يزيد عرضه عن عرض شطّ العرب ونحن في البصرة لم نغادرها جنوبًا بعد، ومثلما ينفتح شطّ العرب، كلّما توجّهنا باتّجاه الخليج العربي، كذلك هذا الخور المستطيل، المزدهي بالخضرة والطيور والدلافين والفقمات التي على جانبه الأيمن، جانب شلال بوين، كنتُ محظوظًا بالطقس، فالسماء صافية وظلال الطيور التي تحرسنا وتغنّي لنا ينعكس على ماء، تخجل زرقته، كلّما حاولت الدلافين أن تُمسك السماء بنظرتها.

واصل قاربنا التنزّه حتّى وصلنا إلى البحر المتّصل بالمحيط الهادئ، وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة في البحر، وأصبح الأفق يحيطنا من جهاتنا الثلاث، عدنا أدراجنا، لندخل إلى هذه اللسان البحري، الذي شعرتُ معه بحميمية، وكأنني في شطّ العرب، وفي تلك المرحلة، لم أكن قد رأيتُ شطّ العرب، فأوّل مرّة رأيته كان في بداية خريف ٢٠١١، هل الحنين لكل ما هو عراقي حتّى الذي سمعتُ وقرأتُ عنه، ولم أره، جعلني في تلك اللحظات التي كدتُ أنسى وحدتي وشعوري المفجع، أنني لاجئ، هذا الشعور الذي جعلني أكتب أكثر من قصيدة، وكأنني أعتذر إلى نفسي عن هذه المفردة التي لطّخَت حياتي.

مِلفورد ساوند، مكان لن يُمحى من الذاكرة، قليلة هي الأيّام التي عشتُها في حبور ودهشة وبهجة واسترخاء، على الرغم من نوبات الحزن والحنين والشعور بالوحدة وصور الماضي المتخم بالأسى التي تلاحقني، بل وتتربّصني، وكأنها ترفض أن أتنعّم بالراحة؛ هذا هو قدر اللاجئ ينمو لديه الماضي المؤلم، وتتضخّم ذكريات الحزن والوجع، حتّى يُخيّل لي أن الإنسان الذي يبقى في وطنه وذكريات أساه ومعاناته جذوره ضعيفة، لكن، ما إن يترك الإنسان وطنه حتّى تصبح الغربة أرضًا خصبة لتقوية ونموّ

جذور الخراب في حياته.

بعد هذه الرحلة المميّزة بين رحلاتي في زي الجديدة، والتي أرجو حقًّا أن تمنحني الحياة فرصة لرؤية المكان مرّة أخرى. عدتُ إلى بلدة الملكة (كوينس تاون)، وتجوّلتُ في هذه البلدة التي كثيرًا ما أخبروني أنها بلدة سياحية بامتياز، ومواردها الرئيس السياحة، ما أزال أذكر ذلك الشارع الضيّق الطويل والمميّز بانخفاضه الحادّ وارتفاعه، تذكّرتُ ما شاهدتُه في الأفلام لبعض الطُرُقات في اليونان وإيطاليا، لكن شمال العراق كان حاضرًا في تلك اللحظات، وأنا أتأمّله، كان السائحون يُطرّزون البلدة بعبقهم، ويدي تُشير إلى قلبي الذي راح يهرول في الطرقات بحثًا عن طيف الملكة التي خلّفت عطرها في المكان، فأسّسَ الرعيل الأوّل هذه المدينة الصغيرة، على شفا بحيرة ووكاتِبو (الباء الأعجمية) التي تشبه الحرف (أس). على مقربة من البلدة ثمّة مزرعة تُدعى "الجنّة" قال الذي بيده مفاتيح الرجاء، وفي حضرته تُفتحُ خفقات القلب، "أن هذه المزرعة تسمّى الجنّة، وهي لو رآها مَن يشتهي الجنّة، فَيُفجّر نفسه، لتمنّى العيش فيها".

لم يكن يسخر في كلامه، أراد التعبير عن جمال زي الجديدة الخلابة حقًّا التي منحتها الطبيعة مميّزات تنفرد فيها، فليس ثمّة درجات حرارة في معظم البلاد تتجاوز الثلاثين إلا قليلًا، ولا تنخفض تحت الصفر إلا في الأماكن التي ارتفعت كثيرًا، وتركت الغيوم تحتها حيرى، كأنها سَكْرى بالغابات التي نمت على سفوح الجبال، وكيف لا تكون آوَتْآرِوَا هكذا، وهي التي تخلو من الأفاعي والعقارب والحشرات الضارّة والزواحف الخطيرة والوحوش والكواسر، وليس فيها سوى عنكبوت يتيم واحد، فيه خطورة، ويجب الحذر منه. في أي مكان من هذه الجنّة الأرضية لك مطلق الحُرّيّة والأمان، فلا شيء سينغّص عليك متعتك سوى أمرين، المطر والريح، هما سيّدا المشهد، ولا يبتعدان إلا وقد خلّفا هواء نقيًا، ممّا منح البلاد ميزة أنها ربّما الأكثر نقاء بين الدول؛ المطر والريح، منحا الخضرة نصاعة باللون، ونقاء وضياء، كأن خضرتها مصقولة لشدّة لمعانها.

أرجوحة من ماء .. جزيرة ستِوازث وتعميد الحظّ في أولفا

كانت إبلاف محطّتنا القادمة، بلدة صغيرة اشتهرت بفضل مصنع الألمنيوم، وتركنا سيّارتنا فيها، وتوجّهنا إلى المركب الذي أقلّنا إلى جزيرة ستِوازث، ثالث الجزر، سكّانها، ٣٧٠ نسمة، بحسب قول السيّدة صاحبة المنزل التي استأجرنا إحدى الشقق في بيتها، أو ما نطلق عليه في العراق تسمية (المشتمل)، أي بيت صغير ضمن البيت الكبير، ويكون ذا استقلالية. قبل أن يتحزك المركب (غبّارَة) أخبرني أحد العاملين أن لا نخشى الأمواج العاتية التي ستجعل مركبنا يرتفع عاليًا، ثمّ يهبط، وهذا في البدء فقط، وليس على طول الطريق، وحين تحزك المركب رحنا نرتفع وننخفض على إيقاع الموج الذي ذكّرني بمراهقين كسالى، يستنفرون قوّتهم ونشاطهم وجبروتهم وكل مميّزات رجولتهم بحسب فَهمهم لمعنى الرجولة، حين تمرّ أمامهم فتاة ما، ولاسيّما لو كانت ممّن تركنَ أثرًا في قلوبهم التي تعشق كل فتاة.

كانت تلك اللحظات قد تعانق فيها الخوف مع البهجة، فما يحدث لا يخلو من خوف، ولكن طمأنة أحد العاملين في المركب لنا، مع وجود بعض الراكبين ممّن يعيشون في جزيرة ستِوازت، أو ممّن له عمل يُحتّم عليه التنقّل اليومي بينها وبين إبلاف، هؤلاء كانوا في غاية الانشراح، وكأن الأمر لا يتعدى حركة بهلوانية بسيطة، يقوم بها أحد الأشخاص أمامهم. واصلنا المسير رويدًا رويدًا، فما لبثت الأمواجُ أن هدأت هدوءًا عجيبًا، وكأن الأمواج العاتية على بُعد بضع مئات من الأمتار، كانت في بحر أو خليج آخر. نحن الآن بدأنا نقترب، كان الطفلُ فيّ يغرف فرحه من بحر، بعد أن كان يحفر الصخر لإيجاد الفرح، لكن الوحدة ما تركتني يومًا، هل هو اليُتم المبكّر؟ أم ذلك الوشم المحفور في الروح والذاكرة، وشمَ اللجوء؟

كل أفراح الدنيا لا تزيل وشم (لاجئ) منك، أيّها الغريب المتلفّع بوحدته والناس حوله. ستّ سنوات وعشرة شهور على وصولي إلى هذا البلد، حصلتُ على جنسيّته وبجوازه سافرتُ، وباستثناء المعاملة السيّئة التي تعرّضتُ لها في مطار القاهرة، فإن المطارات جميعها لم أكن أواجه فيها صعوبة تُذكَر، إلا فيما ندر. لكنها الصفة القاسية (لاجئ) ستبقى تلاحقني مهما حاولتُ خداع النفس. علينا أن نتذكّر دائمًا، أن لكل شيء ثمنه،

والأشياء التي نحسبها كبيرة ومهمة في حياتنا، نخدع أنفسنا، بل نخونها حين لا نعترف بأن أثمانها كانت باهظة، وفي جانب منها خراب لحياتنا.

ترجّلنا على اليابسة، وكانت سيّدة النُّزُل بانتظارنا، سيّدة تقترب من خمسينها، لم يخذلها جمالها بعد، أوصلتنا إلى مكان سَكَنَنا، وضعتُ الحقائب، ودلفتُ إلى الشرفة، وأنا أردّد: ها أنت في جزيرة ستِوازت، حلم آخر يتحقّق، لكن، تذكّر أنها أحلام بسيطة، حلمك الأكبر هو الشعر، أنك نذرتَ عمرك للشعر، وتحلم في يومٍ أن تكتب قصائد، تستحقّ على ضوئها هذه الكلمة الساحرة التي تُطلق عليك "شاعر" تُربكني هذه الكلمة حقًّا؛ كل شيء لأجل الشعر، لأن التجارب الحياتية والقرائية تتطلّب الاستفادة منها صبّها في بوتقة اللاوعي، أعني أن هذه القصائد تتضح فيها تجاربنا الحياتية وقراءاتنا ومعارفنا بتلقائية، لا إقحام فيها، وهذه تحدث حين نهضم تجاربنا الحياتية وقراءاتنا، لنخلق منها نصوصًا، تستحقّ أن تنسب إلى الشعر، ويجد القارئ المحترف فيها متعة كبيرة.

بينما تنتابني هذه المشاعر، اقترب طائر الكِيا منّي، ثمّ تبعه ثانٍ وثالث ورابع، طائر يشبه الصقر، أصغر قليلًا، أعترف أن هذا الطائر سرقني من وحدتي، انتصر عليها، وأنا أشعر بالامتنان لكل مَن يسرقني من وحدتي، بدأت الشمس تميل للغروب قليلًا، وطيور الكِيا تتناوب على مؤانستي، وربّما كل واحد فيها كان يأتي ليتعرّف عليّ، ويُخبر أصحابه، أن عراقيًا لاجئًا يكتب الشعر ومغرم بالتصوير والسفر والاكتشافات،وصل جزيرتنا توًّا، وقد أكون أوّل عراقي وعربي شرق أوسطي هنا، مَن يدري؟ فهذه جزيرة نائية تقع في جنوب الجزيرة الجنوبية لآوتَآرِوَا التي بدورها تقع في أقصى جنوب الجنوب، يا لهذا الجنوب الذي يلاحقني، جنوب كلها حياتي.

في صبيحة اليوم التالي، ذهبنا إلى جزيرة أولفا (الفاء الأعجمية) بقارب صغير، يتّسع لأشخاص عدّة، في منتصف المسافة بين جزيرتَي ستِوارت وأولفا صاحب القارب الصغير، طلب مِنّا أن نُبعد أقدامنا قليلًا، وفتح لنا أرضية القارب، كانت تحت الأرضية الخشب، قاعدة زجاجية، رأينا عبرها نجمة البحر وعددًا كبيرًا من الأسماك والأحياء المائية، كانت تجربة جديدة، أعترف بأن هذه الرحلة حول الجزيرة الجنوبية كانت في معظمها تجربة، بل تجارب جديدة، عشتُها بدهشة طفل يتيم الأبوين، يحصل على عيدية العيد لأوّل مرّة في حياته، مَن عاش الحرمان من الأبوَين في طفولته، ولم يعرف نوم الصباح، سَيَعي قولي تمامًا، وكذلك مَن حمل المحبّة دينًا في جوانحه، سيصله معنى كلامي كاملًا.

كانت جزيرة أولفا مسكونة من قِبَل الماوريين سكّان آوتآرِوَا، ولكن الحكومة أجلتهم لجعل الجزيرة مَحمية، وعوّضتهم عن ذلك مع امتيازات الصيد لهم احتكاره باتّصاف المنطقة تاريخيًا لهم، وأولفا لا تُرى في الخرائط، لكنها تَسحر الزائرين أكثر من جزر تحتلّ مساحات كبيرة من الخرائط؛ جزيرة صغيرة وسط أكبر المحيطات، والدوران حولها لا يستغرق سوى دقائق، فكلّما مشيتُ في غاباتها قليلًا، أرى نفسي أمام ساحل رملي مختلف، مرّة الفقمة تلاعب صديقتها، وفي ساحل آخر، الطيور على مرمى قبلتين وعناق. ماؤها عذب زلال، وغناء طيورها فيه بَحّة عاشق ومَدَّ لسان السكران، الفواكه الكثيرة التي تتغذّى منها الطيور، تساقط الأمطار عليها يُعجّل بتخميرها، فتسكر الطيور بها. لا أجمل من الطير السكران إذا غنّى.

استفزّني عناق الجميع، الطيور والأشجار والفقمات والأسماك التي رأيتُها في عناق ترتفع أكثر من متر عن سطح الماء، نظرتُ لفتاة جميلة معنا، وقرّرتُ أن أغازلها، وأدعوها للعناق، رسمتُ خطّة عاشق سيّئ الحظّ، وحين ناديتُ اسمها تذكّرتُ صفعات معلّمي في المخبز، وأنا في سنّ السابعة من عمري، صمتُّ بريهة، وهي تسألني ماذا؟ مرّ طائران في حالة عناق يطيران، أومأتُ لها، ورفعت عينيّ نحو السماء، صرختُ "ما هذا الجمال! إنه جمال فقط! جمال فقط!" وتعني جمالاً نقيًا، لا تشوبه شائبة،

منذ ذلك اليوم، وأنا أصبحتُ أكثر ولعًا بالطيور، لأنها أنقذتني من صفعة معلّمي الخبّاز، وأنا في أقصى جنوب الجنوب، أحاول أن أدفن ماضيّ بالفرح والاكتشاف والمغامرات.

عدنا إلى جزيرة ستِوازث، وقمتُ بجولة في الجزيرة الصغيرة، وفي اليوم الأخير، وقبل أن يحين موعد القارب الذي سيُعيدنا إلى إبلاف، قمتُ بجولة غريبة في غابات وأدغال الجزيرة، كنتُ وحدي أغنّي وأهرول وأركض أحيانًا، وأتشاجر مع وحدتي التي لا تتركني، تذكّرتُ أصدقائي وأنا أغذّ السير، لأرى مساحات أكبر من الغابات الأدغال، أدغال أكثر ارتفاعًا منّي، لم أفكّر بحشرة ولا حيوان ولا قاتل، جرّبتُ أن أكون وحيدًا في مناطق منقطعة، لا يمكن لأكبر مكبّر صوت في العالم أن يجعل صوتي يصل لأحد، قرّرتُ المضيّ، وأنا أنظر في ساعة الهاتف الجوّال، وانتبهتُ إلى غابة، نويتُ الوصول إليها، لأن البحر - المحيط سيكون بعدها، وددتُ رؤية الشاطئ، هل هو صخري أم حصويّ أو رمليّ؟ وأيّ لون من الرمل؟ لكنني ما إنْ وصلتُ الغابة التي أغرتني أشجارها العالية وغوصي في الأدغال أنّها قريبة، حتّى تأكّد لي أن لا وقت، ويجب أن أعود مسرعًا، وإلا فالقارب لن ينتظر طفلًا طائشًا، يهرب من وحدته، ويحلم أن يتوّج حياته بتجارب، لا تشبه سواه.

وايهوباي آخر جنوب المُدُن

إنْفِركارغِل "وايهوباي" بلغة السكّان القدماء، اللغة الماورية، كانت محطتنا التي تلت بلدة الملكة، ومنها عبر بلدة إبلاف انطلقنا إلى جزيرة ستِوازث، هذه المدينة التي تقع في أقصى جنوب الجزيرة الجنوبية، أي أقصى جنوب زي الجديدة، وهي واحدة من أقصى مُدُن العالم جنوبًا، وكان اكتشافها قد سبق افتتاح قناة السويس بثلاث عشرة سنة، وسبقت حرب قناة السويس (١٩٥٦) بقرن كامل من الزمن. وهي عاصمة أو مركز محافظة (إقليم) أرض الجنوب، يا لهذا الجنوب! يرسم خُطاي، كأنه تعويذة سومرية، وضعتها إحدى الأمّهات من أسلافي، لتقيني جِنّيات "جزر الواق واق، فقط الله الخلّاق"، اللواتي يسرقنَ قلب الغريب، ويضعنَ فيه شيئًا من نبضهنّ، ثمّ يُرجعنَه، وقد هام الغريب بهنّ، وهنّ يتمنّعنَ، وحين ينسى "بابل" للأبد يمنحنَهُ ما يَبُلّ به سنواته، حتّى إذا توارى منه عَبَقُ بـابـل، رمينَهُ بسلاسل، نتانتها تزكم القلوب، يا لبؤس مَن ينسى بابل، أو يتوارى عنه عبقها.

من بلدة في أقصى جنوب الجنوب، ومدينة هي في أقصى جنوب البلاد، إلى جزيرة تنبض بالعزلة والأمطار في جنوب يلوّح بالطمأنينة إلى شماله الذي هو أقصى جنوب البلاد، في بلاد هي أقصى جنوب الجنوب، لا نايَ فيها ولا عود، أنهارها تسمياتها بريطانية، إسكوتلندية في الغالب، وهذه حالة اتّصف بها الأوربيون أكثر من العرب، والسبب أن هذه الأماكن لا عهد للأوربيين بها قبل العصر الحديث، أي كانت فارغة منهم تمامًا، لكن العرب لأنهم انتشروا على امتداد مساحات شاسعة من منطقة الهلال الخصيب الكبرى ووادي النيل، منذ الألف الأوّل قبل الميلاد، وكانوا يتكاثرون رويدًا رويدًا.

حتّى إذا جاء القرن السابع الميلادي، كانوا يشكّلون ثقلًا سكّانيًا مهمًّا من هذه المنطقة الشاسعة، وهو ما ساعد أخوتهم العرب المُحَمَّلين برسالة عقائدية في الانتصار والسيطرة والانتشار بسرعة كبيرة، ومن هنا لا نجد أسماءً عربية كثيرة، تُشكّل معظم أسماء المناطق والمُدُن والبلدان والقرى والأنهار والبحيرات والجداول والسواقي والشلالات والعيون. حافظ العرب

على التسمية، لأنهم وجدوا أخوتهم العرب الذين سبقوهم إليها يُطلقون عليها أسماءها نفسها التي تعلّموها ممّن سبقهم في المكان، في حين نجد الأمر يختلف في أرتريا، لأن نزوح العرب إليها كان جماعيًا، ولا يختلف عن نزوح البريطانيين إلى العالم الجديد، مثل زي الجديدة وأستراليا، فقد وَسموها بأسماء المناطق التي جاؤوا منها تحبّبًا وحنينًا ووفاءً.

هذه هي إنْفِركارغِل "وايهوباي" التي وصلناها من بلدة الملكة "كوينس تاون"، ومنها ذهبنا إلى الجزيرة الثالثة "جزيرة ستِوارت"، ثمّ عدنا إلى أقصى جنوب الجزيرة الجنوبية إنْفِركازغِل، بلدة إبلاف، لننطلق بسيّارتنا إلى كاتلينس، على الساحل الشرقيّ للجزيرة الجنوبية، وتوغّلنا في غابة صعودًا، وفيها كان عناقًا عجيبًا لليل البهيم والأمطار الغزيرة والعزلة النائية، لتطلّ وحدتي من مَكمنها، وتنقضّ على فرحي وبهجتي. الأمطار تُذكّرني بأمطار طفولتي، فالسماء التي ترمي خصبها لتخضّب الأرض، كانت تضطرّني أنا الطفل إلى حمل القدور (الطناجر) الفارغة، ووضعها تحت النقاط التي يتسلّل ماء الأمطار منها إلى داخل الغرف، ومن ثمّ أصعد إلى سطح الدار، وأقوم بإزاحة الماء نحو المرازيب (المزاريب)، ومن ثمّ أصاب بنوبة برد وصداع نصفيّ، بقيت هذه الذكريات عالقة في البال، لا ترضى أن تغادرني، تحضر بقوّة مع المطر الشديد، ولكنها تكون قاسية في حضورها عندما يجتمع المطر الشديد والرياح والظلام والعزلة.

ثقة كوخ تابع لجمعية الغابات والطيور، وسط غابة تتبختر وحشتها في الليل، وتستبدّ مع المطر، دلفنا إلى الكوخ، والجوع والبرد رفيقان حميمان، قمتُ بإعداد العشاء، فمن مميّزات اللاجئ الناجح أن يكون طبّاخًا ماهرًا، وأن لا يقع في مشاكل مالية، تضاف إلى مشاكله. كان عشاءً فاخرًا، على الرغم من بساطته، ففي غابة نائية وليل موحش وأمطار غزيرة، حسبتُ أننا في الصباح سنرى فيضانًا، لكن المرتفعات ترسل طوفانها إلى السهول والوديان، في ظروف كهذه، تصبح البطاطا والبصل وأربع بيضات عشاءً، تتذوّقه بالمتعة نفسها التي تتذوّق الكافيار والسمك العراقيّ المسقوف (المسكوف).

كان صوت المطر يُحفّز الجماد والنبات إلى مشاركته رقصته، وكانت مشاعري بين خوف ودهشة، حضور للطفولة المزة، وشعور أن اللاجئ الذي خرج من العراق مفلسًا، وقد اقترض من عمّه ألف دينار عراقي، أي ما يعادل في وقتها مبلغًا بسيطًا، لا يكفي لمَن يريد الهجرة ومغادرة البلد نهائيًا نحو المجهول أيّامًا عدّة، لولا أن السَّكَن كان مجانًا أوّل وصولي إلى

عمّان، لكنتُ أفلستُ تمامًا في اليوم الثاني؛ هي مغامرة ومتعتها في تهوّرها وحماقتها، إلى الآن أسأل نفسي كيف خرجتُ من البلاد بمبلغ، لو قضيتُ ليلتين، أو في أقصى الحالات خمس ليال في أفقر وأبأس نُزُل في عمّان، لأفلستُ حتّى من شراء رغيف خبز واحد. في زي الجديدة، وفي غيرها من البلدان، كثيرًا ما مررتُ بظروف مماثلة، لكن الأمور تسير على ما يرام في آخر المطاف، مهما بلغت من قسوة، وخوف وعرض السؤال الذي أطرحه على نفسي في كل مرّة أمرّ بموقف محرج، قد يؤدّي إلى ما لا يُحمَد عقباه، ألا وهو: ماذا فعلتُ بنفسك؟ أما كان الأجدر الركون إلى الدعة؟. لكن مثلي لا يمكن أن يركن إلى الدعة، ويقضي حياته في مكتب بين أربعة جدران، ولا في وظيفة مَبنية على التكرار اليومي، ولسنوات طويلة، هذه طبيعتي التي بفضل نزقها تعلّمتُ الكثير، ولو قلتُ إنني محظوظ، فلا يمكن نسيان الكمّ الهائل من المعاناة والألم والخسارات والفقدان في حياتي.

أوّل معرفتي برابع مُدن آوتَآرِوا مدينة (دائدِن) أو (دوئدِن)، واللفظ الأوّل هو الأكثر شهرة، كان عبر لهجتها الإنجليزية التي تختلف عن بقية إنجليزية زي الجديدة، وعن بردها، هذا ما سمعته في بداية وصولي إلى وَلِنغتُن العاصمة، وكنتُ غضًا، لا أفقه باللغة الإنجليزية، فكيف لي أن أفقه فوارق اللهجات، وأميز بينها؟! لكن حديث الناس كان له أثر أن أشعل في أعماقي رغبة معرفة المدينة، وأن أستمع إلى إنجليزية أهلها، كانت زيارتها مثل مُدن البلاد جميعها، ولاسيما الجزيرة الجنوبية، صعبة على لاجئ حين وصل إلى البلاد، لم يكن في جيبه سوى خمسين دولارًا أمريكيًا، ولو دقّقنا الأمر أكثر، فواحد وعشرون دولارًا، لولا أن صديقة أردنية كانت زميلة في العمل أقرضتُها مالًا قبل سفري بأكثر من ستة أشهر، وأعادت لي عشرين دينارًا أردنيًا، أي ما يقارب من تسعة وعشرين دولارًا أمريكيًا، قبل هجرتي من الأردن إلى زي الجديدة بليلة. صرفتُ أغلب المبلغ حين كنتُ في مركز اللاجئين، وكنتُ مُفلسًا حقيقيًا في أوّل أسبوعين لي في بلدة "هات السفلى"، ولولا بطاقات الطعام وبعض المعلّبات التي استلمتُها من مكتب اللاجئين، لكنتُ قد قضيتُ أيّامي جائعًا بما تعنيه الكلمة.

دائدِن تقع في جنوب الجزيرة الجنوبية، وهي ثاني أكبر مدينة فيها بعد مدينة كنيسة المسيح (كرايس تشيرتش)، وتُعدَ رابع مدينة في عموم البلاد تاريخيًا وثقافيًا وجغرافيًـا، على الرغم من أن أكثر من مدينة تفوّقت عليها في عدد السُكّان؛ لا أكتم دهشتي الكبيرة وفرحي وأنا أزور وأتجوّل في دائدِنْ مثلما في غيرها، أنا المهجوس بالسفر والحالم بأن تكون لي تجربة مختلفة، وذات خصوصية، لا يمكن أن تشبه تجربة شاعر أو أديب، بل لا تشبه تجربة أي إنسان. لم أنقطع عن الغناء طوال الرحلة، "وإذا فرحت الأنفس غَنّتْ"، (هذه الجملة منسوبة إلى مؤسّس الإسلام)، وهي جملة دقيقة للغاية، فأنا على الرغم من تربيتي الدينية المحافظة جدًا، لم أستطع أن أمنع نفسي من الغناء حين أشعر بالفرح، حتى في أوج تديّني والتزامي الديني. تتنازعني حالات الفرح والدهشة، فليس قليلًا على لاجئ مثلي أن يقوم برحلة حول الجزيرة الجنوبية لزي الجديدة، فضلًا عن مُدن وبلدات

وأرياف ومناطق وبحيرات وغابات وأنهار وسواحل كثيرة في الجزيرة الشمالية؛ هذه تجربة مهمّة، علّمتني الكثير، ومنحتني فرصة أن أمسك جمال آوثآرِوا.

لكن الماضي المؤلم، ذكريات الحروب والحصار واليُتم والحرمان والجنائز الكثيرة التي كانت تدخل مدينتي، والشعور المرّ بأنني لاجئ، كلمة استقرّت في الوعي الجَمْعي، لمناظر بؤساء وفقراء ومُعدَمين؛ كيف أنسى حين راحوا يشرحون لنا كيف تستعمل المرحاض، وتُنَظِّف نفسك؟! أم تلك القصص الكثيرة التي مرّت بي وبآلاف غيري من اللاجئين، لمتطوّعين تملأ قلوبهم المحبّة بلا أدنى شكّ، يأخذوننا إلى المراكز التسويقية وسواها، ويسألوننا هل لديكم مثل هذه في العراق؟ في إحدى المرّات، حضرتُ أمسية شعرية في غاليري للفنون، الفنّان الشاعر صاحب المكان، وهو يعدّ القهوة لنا، سألني هل لديكم مثل هذه في العراق؟ العراق والعالم العربي، وجدتُه في الوعي الجَمْعي، ليس سوى صحارى وخيام وجمال، صورة رسمها الاستشراق والرحّالة الذين ينتمون لثقافة الاستشراق، ورسموا خرائط، تُعلي من الآريين، ومن غير العرب، وتحطّ من العرب، فليس للعربي سوى الصحراء، وجاء متطرّفو الأقلّيات، واللاجئون منهم ممّن غسل مثقّفو الأقلّيات المتطرّفون والأحزاب القومية أدمغتهم، وراحوا يؤكّدون الصورة التي رسمها المستشرقون.

زرتُ أماكن عديدة في دائِدِن، وكنتُ محظوظًا، إذ رأيتُ طائر القَطرَس، وهو طائر بحري كبير، وهذه الكلمة عربية، نقلها البرتغاليون للّغات الأخرى، وفي اللغة الإنجليزية (الباتروس)، ويعيش هذا الطائر في المحيط، ويزن البالغ منه عشرة كيلو غرامات، يتغذّى على الحَبّار والسمك، ولا يأتي لليابسة إلا للتناسل، وهو يبحث عن مناطق غير مأهولة بالسكّان، إلا في زي الجديدة، فهو في دائِدِن يتكاثر في منطقة مأهولة بالسكّان، قريبًا من الساحل، ولكن، على مكان أو أعلى نقطة قرب الساحل، ليستطيع الطيران، بسبب طول جناحيه اللذَينِ يبلغان ثلاثة أمتار ونصف، وهو أكبر طير بحريّ في العالم؛ توجد في زي الجديدة منه اثنان وعشرون نوعًا؛ وهذه البلاد تُعدّ عاصمته، وكذلك عاصمة الطيور البحرية في العالم.

يعانق الذَّكَرُ الأنثى، ليكون عهدًا بينهما للأبد، وتضع الأنثى بيضة كل سنتين، ويعودان إلى عشّهما، والبيضة التي تُفقس، يأتي الفرخ إلى العشّ نفسه، والذَّكَر يبحث عن أنثاه حين يصلان إلى اليابسة، ولا تعذد علاقات بينهما. هذا الطائر الذي ينام في المحيط، بدأ بالانقراض، لأن الصيّادين

يضعون صنارات صيد الحبار على امتداد خط طويل، وقريبًا من سطح الماء، وليس عميقًا، يأتي القَظرَس لتناول طعامه المفضل "الحبار"، فيتناول صنارة الصيد مع الحبار، ونتيجة لذلك يموت. شركات الصيد، ترفض شراء صنارات صيد، يمكن وضعها على عمق كاف، بسبب ارتفاع تكلفتها المالية، والنتيجة خسارة أعداد كبيرة من هذا الطائر، لا سيما إذا علمنا أن الفراخ تموت بعد اليُتم، فأيّة خسارة تلحق بالطبيعة جزاء جشع الإنسان.

البطريق الأزرق يُغري أومارو

في أومارو التي كانت محطّتنا التالية، حاولنا رؤية البطريق الأزرق الصغير، لكن محاولاتنا ذهبت هباءً، وكأن الحظّ كان يقول لي "اصبر، ليس كل ما في السلّة تلتهمه في يوم واحد"، لأرى البطريق بأنواع، وفي أماكن متفرّقة من زي الجديدة، ورأيته في الأكوادور تحت خطّ الاستواء مباشرة، إن لم يكن عند الخطّ؛ وهو طائر لا يطير ولا يعيش شمال خطّ الاستواء، أتذكّر تلك اللحظات التي رأيتُ البطريق فيها، كانت المرّة الأولى في العاصمة ولنغتُن، وكنتُ قادمًا من المدينة باتّجاه مكان سَكَني في حيّ كيلْبِرْني، عبر الخليج المشرقي (أوريَنْتَل بَيْ) و (إفَنْس بَي)، وبالنقطة التابعة إلى (أوريَنْتَل بَي) بالضبط.

ولأن الطير ارتبط معي بأمرين، الأوّل بوصفه لا يعيش في مناطقنا، وثمة مَن ذكره من أدبائنا، ولم يصلوا إلى الجزء الجنوبي من الأرض، وربّما لم يغادروا المنطقة العربية والمناطق المجاورة لها، والثاني بدار النشر العالمية المشهورة "دار بَنْغوِن" أو "بَنْغوين"، فقد كانت رؤية هذا الطائر في العاصمة أوّل مرّة تُشبه الحلم، كلّما أحاول أن أستعيده بتفاصيل أكثر، يصعب عليّ، فهو حلم، على الرغم من أنه حدث بالفعل، كنتُ مبهورًا، ولم أصدّق ما رأيتُ. لكن، في الجزيرة الجنوبية، رأيتُ أعدادًا منه، كنتُ أراقبها بشغف مثل أبٍ حانٍ، رأى طفله الأوّل يتكلّم بلا انقطاع.

تيمارو (تيمَرو) مدينة صغيرة، هي ميناء مهمّ في جنوب محافظة أو إقليم كانتَربري، تقع ١٩٦ كيلو مترًا شمال شرق دانَدِن و١٥٧ كيلو مترًا جنوب غرب كنيسة المسيح (كرايس تشيرتش)، تكوّنت من حِمَمٍ بركانية، واستُعملَت أحجارها في بناء البيوت، شوارعها متموّجة ذكّرتني بالمنطقة المتموّجة من العراق، وفيها على الرغم من الدهشة والسعادة والحبور التي كنتُ فيها، لكنها الحروب اللعينة تلاحقك في كل مكان، تذكّرتُ الطريق من تكريت - بيجي متّجهًا للثرثار، وكانت الحافلة ترتفع وتنخفض، وإحدى العربات العسكرية انقلبت، فتمّت إحالة الجندي المسكين سائقها إلى التحقيق، ففي الجيش، في الحوادث مَن ينجو من الموت لا ينجو من المحكمة العسكرية، وربّما السجن.

بعد جولة في المدينة، توجّهنا إلى أشْبَرتُن، قضينا ليلتنا فيها، ومن ثمّ تجوّلنا، واستكشفنا المكان ومعالمه، مثلما نفعل مع كل مدينة وبلدة ومنطقة، لنتوجّه إلى ثاني أكبر مُدُن آوتَآرِوَا، مدينة كنيسة المسيح (كرايس تشيرتش)، وهذه المدينة كانت زيارتي الأولى لها في تموز ٢٠٠٢ على ما أتذكّر، وكان الطقس ممطرًا، ومعلوماتي عنها أنها مدينة أقرب إلى الطراز والروح الأوربية، وفيها الشتاء والصيف، فصلان واضحان، فدرجات الحرارة أكثر ارتفاعًا في الصيف، وأكثر انخفاضًا في الشتاء قياسًا بالعاصمة وَلِنغْتُن، والثلوجُ تتساقط على شوارعها أحيانًا، وهذا ما لم أره في العاصمة، وإن حدث، فهو نادر الحدوث عكس مدينة كنيسة المسيح. زرتُ المتحف كعادتي في كل مدينة أزورها، ووجدتُ آثار أسلافي العراقيين الذي بنوا من الطين تاريخًا عظيمًا.

كانت أوّل مرّة أرى فيها آثارًا عراقية في زي الجديدة، عندما كنتُ في مركز اللاجئين، ومن ضمن المنهاج زيارة إلى متحف أرض أوك (أوكلاند) كانت مفاجأة محزنة لي، وأنا أقف أمام آثار أسلافي، فهي في كل مكان، نهبًا للجميع، وكان الشعور في متحف أرض أوك، فيه لوعة، فأنا مثهم من قِبَل طائفة عراقية بأنني غازٍ، ولستُ عريقًا في العراق، ولا أملك تاريخًا حضاريًا؛ في حين أن هذه الأرض أرضي التي لم أكن أعرف سواها، ولم يغادرها يومًا أبي، ولا جدّي، وربّما عشرات الأجيال من آبائي وأجدادي لم يغادروا العراق.

كانت مغادرة جدّي لأبي إلى مدينة عبادان، يوم كانت عبادان أرضًا عراقية، قبل أن تتمّ المساومات، وتُمنح رسميًا إلى إيران، في خديعة قام بها شاه إيران، بحقّ أميرها العربي الشيخ خزعل، تُعيد إلى الأذهان ما ارتكبه سَلَفَ الشاه، قبل الإسلام بالملك العربي ملك العراق والعرب جميعًا النعمان بن المنذر، حين خشيَ الأوّل تفوّق الحيرة في صناعة الأسلحة، ولا سيما الدرع الحيريّ الذي أصبح أكثر تطوّرًا، فحاول الملك العراقي أن يجنح للسّلْم، فحمل هدية كبيرة، وذهب إلى الملك الساساني (الفارسي)، فما كان من الأخير إلا أن رماه في السجن، ثمّ قتله تحت أرجل الفِيَلَة،

مثلما تذكر الروايات التاريخية.

لقد تخلّص جدّي من كل شيء بأبخس الأثمان حين أصبحت عبادان التي هي عند المؤرّخين العرب والمسلمين تُعدّ ضمن العراق التاريخي، الذي حدّه من تخوم الموصل شمالًا وجنوبًا إلى عبادان على ساحل البحر، التي أصبحت منذ سنة ١٩٢٥ ميلادية جزءًا من إيران، عاد جدّي حزينًا، ليسكن كربلاء. وبعد عشرين سنة يموت، مات في سنة ١٩٤٥، ويترك لنا مشاعره في الهرب من العثمانيين، لرفضه الذهاب إلى أتون معاركهم في روسيا، وهرب من الإيرانيين، لرفضه التفرّس، وهو العربي سليل أكثر سلالة أدّت دورًا في تاريخ العراق والمنطقة، ليورثني شغفًا بالعراق وببغداد، حملتُ هذا الشغف معي خشية أن يطعنه الاستبداد.

وقفتُ أمام آثار أسلافي مرّتين: الأولى في أكبر مُدُن منفاي الجميل، والثانية في ثاني أكبر مُدُنه، وأكبر مدينة في الجزيرة الجنوبية، لكن المشاعر كانت مختلفة، ستّ سنوات وتسعة شهور وبضعة أيّام تفصل بين المكانين، في الأولى لاجئ حديث العهد باللغة والثقافات المختلفة والغربة الحقيقية، إذ لا اللسان لساني، ولا البلاد بلادي، وفي الثانية أحمل ذكريات البلاد نفسها، وجنسيّتها، ووعيًا أكبر تطوّر بفضل قراءات واسعة وعميقة في مجالات مختلفة مثل الأدب والتاريخ والفكر، والاحتكاك بالمجتمع النيوزلندي المتنوّع.

كان من ضمن زيارتي إلى المدينة، أن زرتُ امرأة في تسعينها وزوجها في بيتها، هذه المرأة كانت وقت زيارتي لها تقود سيّارتها بنفسها، ولديها حديقة في البيت تعتني بها وبيت زجاجي صغير، وأرتني المخلّلات والمربّيات التي تصنعها، كانت تُريني وهي مُحتفية بي، وشعرتُ أنها أكثر نشاطًا وحيويةً من زوجها، هذه المرأة التي تجاوزت المئة من عمرها الآن، وما تزال حية تُرزَق، الفرق أن زوجها توفّي قبل عشر سنوات تقريبًا، وهي الآن في دار المسنّين، كان لقائي بها فيه متعة كبيرة، فهي كتلة من النشاط والحيوية، ووجهها البشوش وطرافة حديثها، نادتني بجمل، كلّما أتذكّرها أبتسم "أنت رومانسي، أيّها الولد الصغير" وبما أنني أصغر منها بأكثر من نصف قرن، فوقت ولادتي كانت هي في الثانية والخمسين من عمرها المديد حقًا. وهذا البلد يأتي بعد اليابان في متوسّط عمر الإنسان، بلدان هما زي الجديدة واليابان رأيتُ فيهما عددًا كبيرًا ممّن تجاوزوا التسعين من العمر.

مدينة كنيسة المسيح (كرايس تشيرتش) مُكلفة، ولأن السفر يحتاج إلى دقّة في الحسابات، وإلاّ فسيصبح تحقيق الأحلام بالسفر ضربًا من الخيال، فالفنادق ذات النجوم الخمس لها ميزة إفراغ الجيوب، ولأن السفر أحد حاجات النفس للترفيه وزيادة المعرفة واكتساب التجارب، مع شحة الموارد المالية، إذن فلا بد من دقّة في الحسابات، وبعبارة أخرى لا بد من النظر إلى مكان المبيت، بوصفه يفي بالحدّ الأدنى من الشروط، مثل النظافة والسرير المريح، وإلّا سيكون اليوم التالي في الخسارات، إذ الصداع، ولا سيما الصداع النصفي، يتربّص بي، وأهمّ أعراضه أختصرها بجملة واحدة: اسوداد الدنيا في وجهي. فضلًا عن الطعام، ففي النُّزُل يتوفّر المطبخ المشترك عادة. وهذا يساعد على التسوّق وإعداد الطعام الذي سيكون أرخص من وجبات المطاعم.

بعد مغادرتنا مدينة كنيسة المسيح بتسعين دقيقة تقريبًا، وصلنا إلى ينابيع هافنر، وكان المبيت فيها. وفي اليوم التالي، تمتّعنا بمياه ينابيعها المعدنية الساخنة في الهواء الطلق. كان الطقس غائمًا، والمطر خفيفًا، يشبه قميص نوم لعروس في شهر عسلها. على مقربة منا نهر خرير مياهه قصائد رماها الشعراء فيه، لعلّها تداعب قلوب حبيباتهم، وهنّ يغتسلن بالنبع الساخن، برودة الطقس وسخونة المياه المعدنية، ونهر على مبعدة رمي عصا (شمرة عصا) قد تستقرّ فوق ضفّته البعيدة، غابات تطرّز المكان، وعلى امتداد كتفي الجبل طيور تضع تغريداتها مع بيوضها، خضراء هذه الأرض، رأيتُ ارتباكها حين وصولي، كان أسايَ يسبقني، وسُمرتي العربية المعجونة بطين الفرات ودجلة تُفصح عن تاريخٍ طويلٍ، يتوكّأ على غُشبةٍ، تبحث عن جلجامش في المنافي.

وجدتُ نفسي في ينبوع معدني ساخن، تحيطني متناقضات جميلة كلها، مياه ساخنة، ومطر خفيف، ترشقني برودته بالانتعاش، غناء الطبيعة، خرير مياه مسرعة، تنحدر من جبال وهضاب، على أمل الوصول إلى المحيط قبل غياب الشمس، ومَن يصل متأخرًا دليل جريانه في النهر ليلًا قبلات محبّين، طيور كثيرة، بعضها يخفق بجناحيه قريبًا منّا، وكثير منها

تتبارى بالرقص فوق النهر، صوت فراخ الطيور يختلط بصوت الغناء وأصوات لحيوانات وحشرات تتواشج.

الإنصات إلى الطبيعة لا يتحقّق إلا حين تبدأ بسماع أوراق الأشجار وهي تودّع ما بقيَ من الأوراق في جَنَّةِ الشجرة، تتلو وصيّتها الأخيرة قبل أن تسحقها أقدام الغرباء، أو تكون مأوى أو غذاء لحشرة، والحشرات تتغذّى، والنمل يحمل غذاءه، والنحل يمتصّ رحيق الأزهار، فتتوسل فيه الأزهار أن يَتَرَقَّقَ في رضاعته؛ حتى يصعب إيقاف التَّنميلِ والخدر الذي يسري في الجسد والروح معًا، لأن الخمر السماويّ حينها يندلق بلا حساب. السؤال الذي خطر ببالي حينها: هل هؤلاء الذين معي، وأولئك الذين زاروا هذا المكان، تأمّلوا واستنشقوا وأنصتوا ووصلوا حالة الوجد مثلما يحدث معي؟!

نلسون (نَلْسُنْ):

واصلنا رحلتنا بعد ينابيع هامنَر إلى نَلسُن عبر طريق جبلي، هو معبر لَوِس (لَويس) وما بين المكانين، ثمّة ينابيع معدنية ساخنة، ما تزال بكرًا، أي لم تتدخّل الحكومة فيها، على العكس من ينابيع هامنَر التي بنوا بالقرب منها أماكن مبيت واستراحة ومرافق صحيّة (مراحيض وحمّامات ومنازع، أي أماكن تغيير الملابس)، لتنتهي رحلة الجزيرة الجنوبية، التي استمرّت من يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر آذار، وانتهت في يوم الأحد الحادي عشر من شهر نيسان ٢٠٠٤، كنتُ فيها منقطعًا إلى استكشاف أكبر عدد ممكن من أماكن الجزيرة الجنوبية ومجسّات نبضها، مستنشقًا عبير جمالها وعبق دهشتها، وجاعلًا من رصيد ذكرياتي أكثر ثراءً وتنوّعًا وغرابة وتفرّدًا.

لستُ ناكرًا بأن الحزن والوحدة وماضي الطفولة القاسي يُخَيِّمُون أحيانًا بقتامتهم، ليجرحوا الفرح، ويخدشوا البسمة، ويُوجِعوا السعادة؛ لكن رحلتي هذه التي استمرّت أربعة عشر يومًا، من الحركة والنشاط وفق برنامج دقيق ومُكثّف، أعدُّها مفتاحًا إلى رحلات كثيرة ووعيًا أعمق بالطبيعة والمجتمع والحياة المَدَنية، إذ تعلّمتُ حبّ الحياة أكثر على سبيل المثال، عن طريق رجل كبير في السّنّ، زرتُ متحفه الذي بناه على أرضه في الريف، وهذا الرجل أخبرني أنه أُصيب في الحرب العالمية الثانية، والأطبّاء أخبروه أنه لن يعيش أكثر من سنة، فقال هازئًا بثقة، "وها أنذا خذلتُ توقّعاتهم، وعلى الرغم من مرور أكثر من ستّين سنة، ما أزال أتمتّع بالحياة". في متحفه، رأيتُ عملة عراقية من العشرينيات، فيها صورة الملك فيصل الأوّل، عملة لم أرها في بلادي، رأيتُها في أقصى جنوب الأرض.

هنا الإصرار على الحياة، أن تعيش أكثر من ستّين عامًا، ومتوسّط عمر الإنسان تحت سنّ الثمانين، وكان الرجل في ثمانينِهِ، أو كاد، أن يعانق ثمانينَهُ، مملوءًا بالحيوية والنشاط، ومتحفه أكثر ثراءً من متاحف عديدة، رأيتُها في بلدات زي الجديدة، ففي كل مدينة وبلدة زرتُها في آوْتَآرِوَا لا بدّ من وجود مثلّث التمدّن الأهمّ، المكتبة والمتحف والمتنزّه، لم أذكر

المدارس، لأن مُدُننا تحوي على مَدارس، وإن كانت بائسة، ولكنها تفتقر للمتاحف وللمكتبات والمتنزّهات قياسًا بعدد المدارس.

في مدينتي التي من المفروض فيها أكثر من عشر مكتبات عامّة، تحوي مكتبة يتيمة، والمتنزّهات شحيحة، ولا وجود لمتحف (استثناء المتحفين والمكتبتين في داخل جامعي وضريحَي الإمام الحسين وأخيه العبّاس، والأوّل هو الإمام الثالث عند الشيعة الإمامية التي تشكّل جميع سكّان كربلاء تقريبًا) فعن طريق هذه المتاحف، تعلّمتُ أهمّيتها، وأنها ليست معجزة خارقة، فمصطلح المتحف شاسع، وهذا يعني من الممكن أن نبني ألف متحف في العراق، وربّما أكثر، ولو لدينا ثقافة المتاحف، لما تَطَرّف بعض الكُتّاب في مزاعم تُناقض الحقائق، وتترك للأهواء والأوهام أن تكتب نفسها، ويصمت عنها كثيرون، إما لجهل أو محاباة أو خوف على امتيازات، لأن المتاحف اختصار بصريّ لموسوعات، تتطلّب قراءتها مئات الساعات، وربّما أكثر.

حمل الأوربيون، ولا سيما البريطانيون، أسماء مُدُنهم وبلداتهم وأنهارهم وقراهم وأقاليمهم، وأطلقوها على المُدُن والبلدات والقرى والأنهار والأقاليم في آوْثآرِوَا، مثلما فعل قبلهم الإسبان والبرتغاليون عندما وصلوا إلى الأمريكيتين، هذه سُنَن الشعوب والجيوش والغزاة واللاجئين على حدّ سواء، بعضهم لفرض ثقافته ومَحو ثقافة الآخر المهزوم، في حين يحمل اللاجئ حنينًا لمكانه الأوّل، وربّما العرب الأقلّ تغييرًا للأسماء وفرض أسمائهم، وهذا يتّضح جليًا من مقارنةٍ، عقدتُها بين ما فعله الأوربيون وما فعله العرب، على الرغم من ثمّة فروقات، وهي أن العرب دخلوا أراضيَ واسعة، بعضها هم يشكّلون نسبة كبيرة من سكّانها على امتداد قرون قبل الإسلام، وموجودون بوضوح على مدى أكثر من ألف عام من ميلاد مؤسّس الإسلام، وأنهم حملوا رسالة عقيدية، يرون أن الله خصّهم بها من دون الأمم، في توغّلهم وفتوحاتهم، كانت تُخفّف من غلواء واندفاع المتهوّرين والنزقين والمتطرّفين والذين لا تخلو أمّة ولا قومية ولا جيش منهم. ومن النقطة الدينية التي كانت واعزًا مهمًّا احتفظت غالبية المُدُن والبلدات والقرى والأنهار والجبال والقصبات والبحيرات بأسمائها، وهذا ما نراه واضحًا، لو تصفّحنا، على سبيل المثال، موسوعة معجم البلدان لياقوت الحموي (توفي سنة ١٢٢٩ميلادية)، وقبلها كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله المقدسي البشاري (توفي سنة ٩٩٠ميلادية).

أصبحت العلاقة مع مدينة نَلْسُن تُشبه العلاقة مع وِلِنْغْتُن، كلاهما بيت ومأوى. فالأخيرة المدينة التي قضيتُ سنواتي الثمانية فيها. ونَلْسُن بيت العائلة والاسترخاء، المكان الوحيد الذي كلّما زرتُ (منفاي الجميل) أسكن فيها، ومن طقوسي أنني ما زرتها يومًا إلا وزرتُ بحيرة روتو إتي، إذ الهدوء والاستجمام وقضاء أوقاتٍ على ضفافها والغابات المحيطة بها، وتأمّل الأنهار والجداول والسواقي التي تصبّ فيها. وقطع مسافة في وسط الغابة لرؤية ولادة نهر كبير منها، هو نهر بولَر المتدفّق بعنفوان وقوّة، إذ يشقّ صخورًا، ويندفع بسرعة كبيرة، مما يوجب الحذر الشديد لِمُعظمِ برؤية ولادة الأنهار، ولا يجيد السباحة، فكنتُ أذعن للحذر، وأضطهد نزَق الشاعرَ فيّ.

هذه الغابة التي اشتراها السيّد إرنست تومبسُن ومجموعة أصدقائه، تبرّعوا بها إلى وطنهم، بل إلى الإنسانية، واشترطوا على الحكومة النيوزلندية أن تبقى غابة بكرًا، لا يُسمَح بتغييرها وإقامة مشاريع فيها، لتصبح "مَحمية بحيرتَي نَلْسُن الوطنية" هذا التبرّع في جوهره ليس إلى بلده زي الجديدة فقط، بل إلى الإنسانية جمعاء، لأننا بحاجة ماسّة إلى المساحات الخضر، والغابات والحفاظ على البيئة؛ إن جشع الإنسان جعله يستنزف الكثير من طبيعة وخيرات الأرض، مما جعلنا نخسر الكثير، وأن الأجيال القادمة سوف تلعننا على ما تسبّبنا به لأمّنا الأرض وأمننا البيئي. ثلاث مُدُن أو مناطق في الجزيرة الجنوبية زرتُها أكثر من مرّة، هي كنيسة المسيح وِلِنْغْتُن، أما نَلْسُن وبحيرة روتو إتي، فمثلما أوضحتُ أعلاه.

في منطقة الخليج الذهبي (غولدن بَي) شربتُ أنقى ماء ينابيع في النصف الجنوبي من الأرض، وذلك في ينابيع تي وايكوروبوبو أكبر الينابيع النقية في زي الجديدة، وأكبر ينابيع باردة في الجزء الجنوبي من الكرة الأرضية، وتحتوي على بعض أنقى المياه في العالم؛ وهي منطقة مكتنزة بالجمال والانتعاش، ثمّة إحساس خالجني أنني أشعر بالانتعاش طوال الوقت الذي قضيتُه فيها، حتى منظر الفتاتين السحاقيتين الفاتنتين حقًا

وهنّ يَسِرْنَ أمامي في طريقنا المُخضلّ بالنسيم إلى ينابيع تي وايكوروبوبو، وكأنهن أردنَ أن يتباهينَ بقبلات حارّة، كدتُ أحسّ بشغف شفاههنّ الأربع، مما دعا مرافقتي النيوزلندية ذات الجذور الإنجليزية - الأسكُتلندية أن تشعر بالإشمئزاز، لأنها حدست بحسها الأنثوي، وبصفتها ابنة المجتمع نفسه، أن فعلهنّ كان للتباهي أمامنا، لم ألتفت لما قالت محدّثتي، ولم أشعر بأية ردّة فعل، كنتُ منتعشًا، انتعشتُ قبل الوصول، وأنا أحثّ الخطى لرؤية الينابيع، بي شغف عجيب إلى الماء الجاري، وقد ذكرتُ هذا الشغف مرارًا في كتاباتي.

في أوّل وصولي إلى العاصمة وَلِنْغْتُن، لفتَ نظري نوع الحجر الذي تمّ فيه بناء خلية النحل (بي هايف)، وهو اسم المبنى الذي يضمّ مجلس النوّاب والحكومة، وشكله أسطوانيّ، يضيق شيئًا فشيئًا من الأعلى، لا أدري لماذا كنتُ أراه برج بابل، فيشتعل الحنين لديّ إلى جذوري، إلى بابل البعيدة، مثلما كنتُ أظنّ، هل كانت نظرتي هذه متأثّية من فقد الوطن ومحاولة التعويض حتّى لو بالأوهام، لا شكّ أن محاولات التعويض عن نقص ما خلقت لنا سرديات أصبح مجردّ محاولة تفكيكها يُعدّ كفرًا، لا يختلف العقائديّ المتطرّف الديني والقومي والعلمانيّ.

التقطتُ صورًا كثيرة للمبنى، وهي حالة نفسية تعويضية، لم أعِها في وقتها، وكان لون الحجر الرماديّ الغامق، يُثير اهتمامي وفضولي، حتّى كانت زيارتي إلى الخليج الذّهَبيّ (غولدن بَي) المكان الأثير للباحثين عن الراحة والهدوء بعيدًا عن ضجيج المُدُن، فرأيتُ تلّ تاكاكا الذي من أحشائه تمّ بناء خلية النحل الحكومية وبيت الشعب، وأنّى لعراقيّ مثلي، وهو يرى تكالب السياسيين والعسكريين عليه منذ أكثر من أربعين سنة ونيف، بين مستبدّ ظالم، يرى العراق مزرعة له ولذويه فقط، وبين نهّابين متعصّبين بكراهيات متعدّدة ومظلومية تاريخية، أن يعترف بأن بيت الحكومة ومجلس النوّاب حقًّا خلية نحل، تستحقّ الثناء، وأن لا عيبَ في آوْتَآرِوَا سوى أنها نائية للغاية عن جذوري في بابل، وأنا رجل خضّبتني المنائر بأنوارها، فصرتُ موزّعًا، بل ضحية بين أنوارها ومغريات الاستكشاف والترحال اللذين أنصتُ لهما بكل خشوع، وحين يطول النأي، أستخرج قبضة من أنوار المنائر أشمّها، ففيها رائحة الأسلاف في بابل، لتكون دليلي.

بلدة بْلِـنْهيم لا يوجد فيها ما وجدتُه في مُدُن وبلدات وأماكن أخرى، لكنها، مثل البلدات النيوزلندية جميعها، مليئة بالحدائق والمتنزّهات، ونصب الجنود الذين ماتوا في الحروب التي خاضتها هذه البلاد مثل

الحربين العالميتين الأولى والثانية، وحرب جنوب أفريقيا، والحرب الكورية، وهذا النصب يتوسط حديقة كبيرة نسبيًا، أي بحسب المُدُن والبلدات، وتجد أسماءهم، أعني أن كل بلدة أو مدينة وضعت في النصب الذي يتوسطها عادة، أسماء الجنود القتلى كنوع من الامتنان والتقدير والاعتراف بالجميل لأولئك الذين ضحّوا بحيواتهم لأجل وطنهم.

وهو ما كنتُ أتوقّف عنده بألم وحسرة، لأن العراق الذي لا يوجد زقاق من أزقّته لم يقدّم قرابين للوطن، ولحماقات الأنظمة على السواء، ليس فيه سوى نصب جندي مجهول واحد، ونصب شهيد واحد، وثقة أصوات تعالت لتهديمهما، بحجّة أنهما من آثار نظام صدّام حسين، كنتُ أتحسّر وأنا أقرأ أسماء أولئك الذين قضوا نحبهم في مصر وتركيا ومناطق بعيدة للغاية عن آوَتَآرِوَا، لكنّ المجلس البلدي في كل مدينة وبلدة لم ينس أبناءه، في حين تعاني الكثير من عوائل الضحايا إلى الآن التسويف والمعاملة المؤدلجة التي لا تعترف بكونهم ضحايا مثل غيرهم، بحسب سلوك القائمين على الأمر (المسؤولون) مع الأسف.

حتّى أثبتنا أن مشكلة العراق ليست في تغيير الوجوه وإسقاط الأنظمة فقط، بل في تفكيك ثقافة الإلغاء لبناء ثقافة مَبنية على المحبّة والمواطنة، فلقد تمّ النظر إلى ضحايا الحروب قبل التاسع من شهر نيسان ٢٠٠٣ على أنهم خَوَنَة، أو في أحسن الأحوال مشكوك في ولائهم، وهم ضحايا، لا حول ولا قوّة لهم، خسروا شبابهم وحبيباتهم وأطفالهم وحياتهم، وأصبحوا تحت التراب، ليأتي أصوليٌ مُتطرّفٌ متخمٌ بالكراهيةِ، ويقزّرُ أنهم خَوَنَة.

بِكُثُن ميناء في أعلى الجزيرة الجنوبية، منها تنطلق العربات ووسائط النقل والمسافرون القادمون من الجزيرة الشمالية، إلى بقية مناطق الجزيرة الجنوبية، ومنه يتمّ الانطلاق إبحارًا إلى الجزيرة الشمالية، أوّل زيارة لي إلى هذه البلدة - الميناء، كانت في شهر آذار عام ٢٠٠٠، وكانت رحلة لنهار واحد بسعر مُخَفّض، جاءتني تذكرتها هدية، تجوّلتُ في غاباتها، ولكن الجزر الصغيرة والصخور العملاقة التي تسبق وصولنا إليها، أي التي نواجهها حال توديعنا بِكُثُن وإبحارنا باتّجاه العاصمة وَلِنْغُثُن، هذه المنطقة التي يُطلَق عليها مالْبـرا ساوند، وأراها أسنانًا بَخرية، فهي تشبه أسنان الإنسان وأضراسه، وتُثيرني متاهاتها وأزقّتها البَخرية، وأحجام الجزر المختلفة، وأشكال الأسنان البَخرية المثيرة للاهتمام؛ هذا الجزء من آوَتَآرِوَا أتمنّى أن تُتاح لي فرصة التجوال بين جزره وصخوره ومُسَنِّناتِهِ، تَشعّبات لها خصوصية جمالية، تسحرني، وأنا أتأمّلها عبر الطائرة من وإلى وَلِنْغُثُن،

أو عبر السفينة، هذه السفينة التي أوّل مرّة أركبها كانت في تلك الرحلة، مثلها مثل القطار الذي كانت أوّل مرّة أركبه في شهر تموز ١٩٩٧ عندما قمتُ بزيارة صديق لي يسكن العاصمة وَلِنْغتُن، وأنا كنتُ في مدينة هات السفلى. فهل سيتحقّق حلمي، وأتجوّل في أزقّةِ مالْبـرا ساوند البَحرية؟

ليست الأحلام كلها تتحقّق، ولكن، كلّ الأشياء لنا الحقّ أن نحلم بها، وواجبنا أن نسعى إلى تحقيق أكبر عدد من أحلامنا، من هذا المنطلق، سعيتُ طوال حياتي لأمرين، ضخّ التمنّي بأحلام جديدة، والسعي إلى تحقيق أحلامي قديمها وجديدها وما سيستجدّ منها، أحزن حين أُخفِق، ولكني مملوء بالأمل، وفي أسوأ الظروف لم أشعر أن هذه نهاية الأمل وموت الأحلام، بل دافع أكثر إلى النجاح، يتوازى عندي النجاح والإخفاق، الأوّل يمنحني قوّة وعزيمة لإحراز المزيد من النجاح، وينفخ القوّة في أحلامي، لتكبر أكثر ممّا هي عليه، والثاني يمنحني فرصة ثمينة لمحاسبة النفس وتحليل أسبابه ودوافعه وأعراضه، وجعلها أرضية صلبة، تحفزني إلى قطف النجاح، والنجاح أنواع مختلفة، قراءة الكُتُب الجادة نجاح، لأنها خزين لتجربة أكثر وعيًا ومعرفية، والنشر في مجلات مهمّة نجاح، لأنه يُكرّس الشعور بالمسؤولية لدى الذات المسكونة بهاجس الإبداع والتفرّد. ومثلما النجاح والإخفاق يتوازيان، كذلك الرأيان الإيجابي والسلبي، الأوّل دافعٌ إلى النجاح أكثر والعمل أن أكون أهلًا لحسن الظنّ بي، وامتنانٌ لكل مَن وقف معي، ودعمني، ودافع عنّي، وكتب بمحبّة وثناء؛ أما الثاني السلبيُّ، فآخذه بمسؤولية كبيرة، بوصفه إن كان ناتجًا عن حقد وكراهية وغيرة، فهو دليل نجاحي، وواجبي أن أحافظ على هذا النجاح، وإن كان ناتجًا عن رأي متطرّف يَنشد القصيدة الحداثوية، والتي وضع لها مقاسات، تكاد لا تنطبق عليها أية قصيدة، فما المانع أن أتشدّد مع نفسي أكثر، وأرتقي درجات، فلا بدّ أن يُنتج هذا تطورًا في تقنيات قصيدتي، وحتمًا إن إصراري سوف يجعل صاحب الرأي المتشدّد أن يعي حقيقة إخلاصي للشعر، وتكريس حياتي له؛ إن قولي هذا لا يتناقض مع ما أؤمن به، وهو أنني في كل الحالات لا أجد نفسي إلا فيما أحبّ وأعشق، أي الشعر والقراءة والسفر وحبّ المغامرة المعرفية والمكانية، والتفرّد ليس من أجل التفرّد، بل لرفضي أن أكون نسخة عن آخرين، كتابة وقراءة وسفرًا ووعيًا وطروحات.

على امتداد رحلتي الطويلة في الجزيرة الجنوبية، والتي يراها كثير من الناس أنها أجمل من الجزيرة الشمالية، كنتُ أتمنى أن تكون معي كاميرة فيديو احترافية مثل التي يستعملها مصوّرو القنوات الفضائية والبرامج الوثائقية، والاتّفاق مع قناة فضائية لتصوير عشرات الساعات، وإرسالها لهم مع الحديث عن هذه الطبيعة التي تُعد بكرًا بالنسبة للعالم العربي. إذ كان الدوران حول الجزيرة الجنوبية أحد أحلامي التي تحققت، وأن حلمي في الدوران حول الجزيرة الشمالية لم يتحقّق بعد، ولكن ما رأيته من مناطق كثيرة من الجزيرة الشمالية تزيد على النصف إن لم يكن الثلثين، يمنحني ميزة، قالها لي صديقي الشاعر الأمريكي لويس سكوت "إن ما رأيته من مناطق، لا أظنّ أن عشرة بالمائة، إن لم تكن خمسة بالمائة من النيوزلنديين قد رأوه، وتجوّلوا فيه".

كانت من نتائج هذه الرحلات التعرّف أكثر إلى طبيعة البلد الذي وطّنتني فيه المفوّضية السامية لشؤون اللاجئين، من دون إرادتي، بصفة لاجئ، هذه الصفة التي لم أسمعها باستخفاف، لو استثنيتُ ذلك الرجل غريب الأطوار في نُزُل مشفى هات السفلى (وادي هات)، لكنني سمعتُها باستخفاف من عراقيين وصلوا إلى زي الجديدة بصفة مهاجرين (ضمن نقاط نظام الهجرة). نعم، سمعتُها من ثلاثة عراقيين، ولم أسمعها من سواهم؛ لكن الصورة القارّة في الوعي الجمعي للاجئ، أنه مُعدَم، ومن مناطق منكوبة، وهي بالضرورة لم يصلها التمدّن.

للطرافة أذكر ما رواه لي صديقي العراقي الأرمني ابن عربخا (كركوك)، وتربطني به علاقة فوق الجيدة، فحين كان يراجع لإتمام أوراق التأشيرة، والإقامة لزوجته التي كانت في بغداد حينذاك، وفي جلسة، جمعته بأصدقاء، سألوه عن موعد وصول زوجته، وبينما هو يتحدّث عن معاناته مع الدوائر الرسمية في آوَتَآرِوَا، قالت له إحدى الصديقات: "إني أفكّر في زوجتك، كيف ستأتي إلى هنا، وتتآلف مع المكان، فمن صحراء وَجِمال وخيمة إلى أرض تخلو من الصحراء، بل إن الخضرة تنبت فيها تلقائيًا في كل مكان، وبيوتها خشب وشوارعها مُعَبَّدَة، فضلًا عمّا تراه هنا من تَقدّم

ومَدَنيةٍ وثقافة، أساسها الحُرّيّة والسلام؛ كأن سنوات الغربة الطويلة منحتْ صاحبي هدوءًا عجيبًا، وربّما لكثرة ما سمعتُ من كلام عن اللاجئين، ولا يُستثنى العراقي وغير العراقي.

فكان ردّه في غاية الطرافة، إذ تماهى معها، وأخبرها أن زوجته لديها جَمَلٌ صغير مقرّب إليها مثلما هو الحال في علاقاتكم مع الكلاب، وهي بقدر شوقها إليه، بعَدَهِ زوجها، وتريد أن تكون معه، فإن الجمل الصغير عزيز عليها، وهو الآن يبحث عن طريقة لجلبه معها، إن أمكن، وإلا فسوف تصل إلى هنا، وتعيش في تعاسة بعيدة عن جملها الصغير الأثير إلى قلبها، وهذه المرأة حسب رواية صديقي كانت قَسَمَات وجهها قد كساها الحزن والتعاطف مع مشكلة صديقي وزوجته الشابّة، فهي لم يخطر ببالها أن هذا الإنسان حاول أن يتماهى ممازحًا لا أكثر نتيجة مرارات مرّ بها، مع كلامها اللامعقول، والذي أرسته عقلية استشراقية عدائية.

ووسائل إعلام لا تُظهر، على سبيل المثال، من أفريقية إلا الجفاف وأمّهاتٍ، أكل الجوع أثداءهنّ، فلم تعد سوى ضروع خاوية، وطفل يُشرف على الموت، يحاول أن يمصّ آخر قطرة حليب، إن وُجدت، ليستمرّ بالشهيق والزفير؛ أفريقية التي أعيش فيها منذ أكثر من عام، وزرتُ فيها عددًا من المُدُن والأرياف في السودان وأثيوبيا هي نقيض ما تضخّه وسائل الإعلام الغربي عن هذا القارّة، والحال نفسه ينطبق على العراق الذي حين كنتُ أعرض صورًا لمُدُنه ومعالمه الحضارية كان النيوزلنديون من أصدقاء وزملاء، يستغربون ما يرون بدهشة كبيرة، ويقولون "إن وسائل الإعلام لا تنقل لنا هذا مطلقًا".

لا يُلام الأجنبي، والنيوزلندي وهو الذي يعيش في آخر بلد في العالم أن يحتفظ بصورة كهذه عن العراقي والعربيّ، حين نرى هذا الهَوَس أصبح عند العرب أنفسهم، وهم يُكرّسون بيئة الصحراء كبيئة وحيدة لهم، فمنهم عن جهل، وما أكثرهم، وبينهم من كان جالدًا الذات، وآخرون كانوا يحفرون الهزيمة أمام الغربيّ، لأن القومية العربية تعيش كفكرة في أسوأ مراحلها، فهم لا يكتفون بالتنكّر لعروبتهم، وهم لا جدال في عروبتهم، بل ينحون منحيين، تأسيس سردية وَهمية، تعود بهم لأقوام قديمة، سبقت الميلاد بقرون، وشنّ حملة هجومية شعواء على العروبة والعرب، حتى لِيُخَيّل للقارئ أن العرب أسوأ أمّة على الإطلاق، وهم بهذا يقعون في أكثر من خطأ، يضعهم في الثقافة التي أنجبت الاستبداد والطغاة أنفسهم، أوّلًا لأن العرب عرفوا الكتابة والمُدُن والقوانين نحو ألف سنة قبل الميلاد، أي أكثر

من ستة عشر قرنًا سبقت الفتوحات الإسلامية. ثانيًا الأقوام القديمة ذابت بالعرب، ولكن، عبر مدة زمنية طويلة جدًا، في حين أن أقوامًا عديدة خسرت لغتها، وذابت، أو جهلت هويتها عبر قرنين فقط، وربما أقل بكثير، على يد الأوربيين، وما الدول الناطقة بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والهولندية والبرتغالية إلا دليل ساطع. ثالثًا يجب التفريق بين العروبة، بوصفها هوية ثقافية، صنعتها شعوب المنطقة، ويتصدر العراقيون دور الريادة الأول فيها، لأنهم ابتكروا أبجديتها، وفرضوا لهجتهم، لتكون اللغة الكتابية التي نزل فيها القرآن الكريم، فهي ليست لغة قريش، بل قريش نشرتها بعد الفتوحات، وبين استبداد الأنظمة العربية وتطرفهم القومي، الذي هو واجهة لا أكثر، لتشبثهم بالسلطة. رابعًا كي نتخلص من إرث الطغاة والاستبداد وثقافة الفرقة الناجية التي جلبها الغرباء على ثقافتنا بعد ضعف الخلافة في بغداد، أي بعد وفاة مؤسس الإسلام بأكثر من قرنين، أقول علينا أن نفكك ونحلل ثقافتنا وحواملنا الاجتماعية، ونضع أيدينا على العوامل التي ساعدت على ظهور الاستبداد، ثم انهيارنا المريع هذا، لا بوصم العرب (وهم نحن)، بأنهم صحراويون بَذوٌ غزاة أجلاف، في حين أن المُدن تُشذّب الناس بعد جيلين وثلاثة، فكيف وقد مضت قرون طويلة جدًا؟!

التاريخ يعني تطوّر اللغات والعقائد والثقافات والحوامل الاجتماعية والأنساق المعرفية، والآثار والمسكوكات والأدب والشعر وبقية الفنون، فقول المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" " والأقاليم العربية: جزيرة العرب، ثم العراق، ثم آقور، ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب" هو وثيقة تاريخية في غاية الأهمية، تُثبتُ أن مصطلح "الوطن العربي" الذي يَشمل هذه المناطق لم يكن زعمًا لقوميين عرب متعصبين، وإنما هو حقيقة تاريخية على الشروط الآتية: ثمة مُنجز كتابي عربي ضخم بمقاييس ذلك الزمان، في هذه الأقاليم الستة، وهو ما يعني مئات الشعراء والأدباء والكُتاب ممن عاشوا أو ترعرعوا فيها قبل سنة ٩٩٠ ميلادية، إن لم يكن قبل ولادة المؤلف، وأن آلافًا بعد وفاته على امتداد المدة الزمنية ما بين سنة وفاته "٩٩٠ ميلادية" وقيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، فإذا كان المنجز الثقافي باللغة العربية هو الأضخم، نستشفّ أن كلام المقدسي يُعدّ وثيقة علمية، لا غبار عليها، وإلا العكس، وهذا ينطبق على كل قومية وإثنية في المنطقة، ولا سيما العراق وبلاد الشام، أو ما يُطلَق عليها منطقة الهلال الخصيب، فمَن ليس لديه شعراء وأدباء كتبوا بلغته قبل القرن العشرين في كل مدينة يراها تنتمي له قوميًا أو عرقيًا، بما يُشكّل النسبة

الكبرى على الأقل عبر أجيال عدة سبقت الحرب العالمية الثانية (على اعتبار أن لديه شعراء وأدباء ينتمون له قوميًا، وولدوا فيه قبل سنة ١٩١٤، مما يعني أن لديهم نتاجات منشورة قبل سنة ١٩٣٩)، يصبح نسبة الأماكن التي يُشكّل فيها غالبية كبيرة اليوم وينسبها إليه عِرقيًا، غزوًا بلا شك.

وأخيرًا

حتى هذه اللحظة، ينتابني أحيانًا ذلك الشعور الغريب، فأسأل نفسي: هل ما فعلته في حياتي كان صحيحًا؟! ماذا لو بقيتُ في مدينتي وفي كنف أمي وجدتي وشقيقتي؟! سنوات طويلة من حياتي أتنقل بين الكتُب والبلدان والثقافات والهموم والآلام والفقد والحنين، وأوجاع الغربة، والشعور أنني بلا وطن، والاستكشاف والمعرفة والجميلات اللواتي وسمن بقبلاتهن ذاكرتي، ولكن أمرين لم أتيقَّن منهما، ألا وهما: هل ما فعلته بحياتي كان صحيحًا؟ والثاني: إلى متى أراني من دون الخَلق، أنا المَعنيّ تمامًا بقول أبي الطيّب المتنبي:

ألفت ترحّـــلي وجعـلتُ أرضي قتـــودي والغـريـريّ الجـــــلالا

فما حاولتُ في أرضٍ مقـامـــًـــا ولا أزمعتُ عن أرضٍ زوالا

عــلى قلـــق كأن الريــــح تحـــتي أوجّهها جنـــوبًا أو شمــــــالا

إن حياتي تخصني وتتفق مع طبيعتي، لا أظنّها تصلح للجميع، ولا أتمناها للجميع، إلا مَن كان مثلي، لا يمكنه الاستقرار في مكان واحد لسنوات طويلة جدًا. لا أنكر ما جنيته من فائدة كبيرة في رحلاتي وعدم استقراري، وأن الثمانية والتسعين شهرًا في آوتآروا أمَدّتني كثيرًا من الصبر والمراس على تحمّل الغربة، ومعنى أن أكون لاجئًا، وأبدأ من الصفر، أن أجعل نظرات الازدراء وما تعرّضتُ له من تفرقة عنصرية، إلى إصرار على تجاوز نفسي، وبإظهار ما كان من مواهب كامنة لدي، مثل قراءة التاريخ الثقافي والاجتماعي، وتأمّل المجتمعات وجعل التجربة الحياتية في الاختلاط بثقافات عديدة ومتنوّعة، وفَهم تاريخها بشكل مُبَسط، ثمّ مقارنته بالتاريخ العراقي، ممّا مَهَّدَ السبيل لي إلى فَهم الكثير من الإشكاليات في وطني وبروز الخراب والفساد الذي كرَّسَه وساهمت فيه النُّخب التي كنتُ أظنّها الأكثر وطنية وعراقية.

كنتُ أجهل وَلَعي بمراقبة الطبيعة وتأمّلها، الطيور والنباتات والحشرات والحيوانات، وتذكّرتُ تلك الوسائل التعليمية والحكم التي وُضِعَت على لسان الحيوانات في تراثنا العربي الذي هو أغنى وأثرى تراث عرفته

اللغات.

وفي هذا البلد، نمتْ لديّ مسؤولية الحفاظ على البيئة أكثر من ذي قبل، وكذلك أهمّيّة المتاحف والمكتبات العامّة والمَحميّات، ولا أنكر أنني أمسيتُ أحلم في إقامة متحف في كل مَحلّة (حَيّ) سَكَنية، ومتاحف عدّة كبيرة في كل مدينة، ومع كل متحف مكتبة، بل إن خيال القارئ والشاعر فيّ صار يَتخيّل اجتماعات بين فنّاني العراق ومهندسيه المعماريين والاختصاصات القريبة، في تصميم المتاحف والمكتبات والحدائق وبوّابات المَحميات الزراعية والحيوانية، والمدارس بمساحات كبيرة، تضمّ مكتبة بطوابق عدّة، ومسابح وحدائق وقاعات اللياقة البدنية وساحات الألعاب جميعها، ولا بدّ من (شكر زي الجديدة) مَنفاي الجميل في ظهور مواهبي وهواياتي وأمنياتي وأحلامي التي كانت كامنة تحت رماد المجتمع المُثقَل بالاستبداد وعَسَس الطغاة والأعراف البالية.

إن كانت عندي أمنية كبيرة، فهي أن يتحوّل هَوَس الشعراء والأدباء والكتّاب والصحفيين والقرّاء عمومًا من قراءة الرواية، إلى قراءة تاريخ العراق تامًا، وأعني تاريخ مراحله التاريخية قديمها ووسيطها وحديثها، وتاريخ تنوّعه اللغوي والعِرْقي والإثني والقومي والديني والمذهبي والمناطقي، وفَهْم طبيعة جغرافيته المرتبطة ببعضها، وأي فصل بين أجزائها يعني الخراب والموت، وحدة فرضتها الجغرافية، وأكّدها وثبّتها المؤرّخون والبلدانيون.

أمنيتي أن يصبح هذا الهَوَس في قراءة تنوّعنا التاريخي واللغوي والعقائدي والثقافي والجغرافي، أساسه المحبّة لهذا التنوّع، ووقف نزيف الخراب والكذب والتزوير والكراهية والحقد الذي فاق ردّة فعل الضحية التي لها مسوغاتها بالشعور بالمظلومية، ولكن، لا مسوغ لها في الإساءة إلى وحدة التراب العراقي، وعراقة العرب فيه، ولا ليتحوّل هذا الشعور إلى تكريس سرديات، تزعم أنها "علمية"، وما هي سوى أوهام بالمجد والعَظَمَة والعراقة، وأدنى قواعد البحث العلمي تقول: إن لا عراقة ولا وجودَ كثيفٌ وفعّالٌ لفئة ما يمتدّ إلى قرون طويلة، وليس لديها مئات الأسر (البيوتات) العلمية التي تنتمي لها ثقافيًا وقوميًا، والتي أنجبت مئات الشعراء والأدباء والكُتّاب، وكتبوا بلغتها قبل القرن التاسع عشر، وأن عدد مبدعيها ومنجزها التدويني بلغتها، والذي سبق الحرب العالمية الأولى قد تجاوز الآلاف، وأنجز لنا عشرات الآلاف من الكُتُب.

هل سيتحقق حلمي بعراق، تشع فيه المحبة والاعتزاز بوعي وعلمية بتنوعه وعروبته؟ وهذه العروبة التي صنعتها شعوب المنطقة كلها، لا يتحسس منها ضحايا الاستبداد، ولا غير العرب في العراق؛ لأن لهم دورهم المشهود، هم وأسلافهم، في بنائها.